وصية جعفر الصادق لأحد المريدين

كان تنقل أهل البيت فى أقطار الأرض ، إثر ما وقع عليهم قديماً من حيف ، سبباً فى انتشار العلم ، وانتفاع الجماهير بما يقبسون من سيرتهم العطرة .

وفى العصر الأول ، ذهب الإمام « جعفر الصادق » إلى مدينة رسول الله ﷺ ، يعتزل بها من الفتن ويبتعد بدينه عن مؤامرات السُلطة وإرهاب العباسيين .

وما إن سمع الناس بمجيئه حتى هرعوا إليه ابتغاء التعلم والاقتداء .

وكان فيمن ذهب إليه رجل مُسنّ اسمه « عنوان » ، من أولئك الرجال الذين يحيون لطلب المعرفة واسترضاء اللّه ، جلّ شأنه ...

وكان شيخاً قد بلغ الرابعة والتسعين من عمره .

فلنسمع إلى « عنوان » يقص علينا نبأه مع جعفر الصادق .

قال : كنت أختلف إلى مالك بن أنس سنين .

فلما قدم جعفر بن محمد الصادق ، رضى اللّه عنهما ، اختلفتُ إليه وأحببتُ أن آخذ عنه كما أخذتُ عن مالك .

فقال لى يوماً : إنى رجل مطلوب ، ومع ذلك لى أوراد آناء الليل وأطراف النهار ، فلا تشغلنى عن وردى ، وخذ عن مالك واختلف إليه كما كنتَ تختلف .

فاغتممتُ من ذلك وخرجتُ من عنده وقلت لنفسى : لو تفرّس فىّ خيراً ما زجرنى عن الاختلاف إليه والأخذ عنه .

فدخلتُ مسجد رسول اللّه ﷺ ، وسلّمتُ عليه . ثم رجعتُ من الغد إلى الروضة وصليتُ فيها ركعتين ، وقلت : أسألك يا اللّه يا اللّه أن تعطف علىّ قلب جعفر وترزقنى من علمه ما أهتدى به إلى صراطك المستقيم .

ورجعتُ إلى دارى مغتماً ولم أختلف إلي مالك بن أنس لما أشرب قلبى من حب جعفر .

فما خرجت من دارى إلا للصلاة المكتوبة حتى عيل صبرى .

فلما ضاق صدرى تنعلتُ وترديتُ وقصدتُ جعفراً ، وكان بعدما صليت العصر ...

فلما حضرت بباب داره استأذنت عليه ، فخرج خادم له ، فقال : ما حاجتك ؟

فقلت : السلام على الشريف !

فقال : هو قائم فى مصلاه ؛ فجلست بحذائه ... أنتظر ...

فما لبث إلا يسيراً حتى خرج فقال : ادخل على بركة اللّه .

فدخلتُ وسلّمتُ عليه ، فرد علىّ السلام وقال : اجلس ، غفر اللّه لك .

فجلست ، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال : أبو مَن ؟

قلت : أبو عبد اللّه .

قال : ثبّت اللّه كنيتك ووفقك يا أبا عبد اللّه . ما مسألتك ؟

فقلت فى نفسى : لو لم يكن لى فى زيارته والتسليم عليه غير هذا الدعاء لكان كثيراً .

وقبل أن أجيبه رفع رأسه وقال : ما مسألتك ؟

قلت : سألتُ اللّه أن يعطف علىّ قلبك ويرزقنى من علمك ، وأرجو أن يكون اللّه تعالى أجابنى فى الشريف ما سألته .

فقال : يا أبا عبد اللّه ليس العلم بالتعليم [1] ، وإنما هو نور يقع فى قلب مَن يريد اللّه تعالى أن يهديه .

فإن أردتَ العلم فاطلب فى نفسك أولاً حقيقة العبودية .

واطلب العلم باستعماله . .

---

(١) سنشرح هذه الكلمات بعد .

واستفهم الله يفهمك .

قلت : يا شريف !

قال : قل : يا أبا عبد الله .

قلت : يا أبا عبد الله ، ما حقيقة العبودية ؟

قال : ثلاثة أشياء : أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً ، لأن العبيد لا يكون لهم ملك .

يرون المال ، مال الله ، يضعونه حيث أمرهم الله تعالى به .

ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً [1] .

ويجعل اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه .

فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله أن ينفق فيه .

وإذا فوّض العبد تدبير نفسه إلى مدبره هانت عليه مصائب الدنيا .

وإذا اشتغل العبد بما أمره الله ونهاه لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس .

فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هانت عليه الدنيا وإبليس والخلق .

لا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً .

ولا يطلب ما عند الناس عزاً وعلواً

ولا يدع أيامه باطلاً .

فهذا أول درجة التقى ، قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [2] .

---

(١) سنشرح هذه الكلمات بعد .

(٢) القصص : ٨٣

قلت : يا أبا عبد الله أوصنى .

قال : أوصيك بتسعة أشياء ، فإنها وصيتى لمريدى الطريق إلى الله تعالى . أسأله أن يوفقك لاستعمالها .

... ثلاثة منها فى رياضة النفس ، وثلاثة منها فى الحلم ، وثلاثة منها فى العلم ، فاحفظها وإياك والتهاون بها .

قال « عنوان » : ففرَّغتُ قلبى له .

فقال : أما اللواتى فى الرياضة : فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه ، فإنه يورث الحماقة والبله .

ولا تأكل إلا عند الجوع [1] .

وإذا أكلت ، فكلْ حلالاً وسم الله واذكر حديث رسول الله ﷺ : « ما ملأ آدمى وعاءً شراً من بطنه ، فإن كان ولا بد فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسَه » [2] .

وأما اللواتى فى الحلم .

فمَن قال لك : إن قلتَ واحدة سمعتَ عشراً ، فقل له : إن قلتَ عشراً لم تسمع واحدة ...

ومَنْ شتمك فقل له : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فأسأل الله تعالى أن يغفر لى . وإن كنت كاذباً فيما تقول ، فأسأل الله أن يغفر لك .

ومَنْ توّعدك بالخنا فعده بالنصيحة والدعاء .

وأما اللواتى فى العلم : فاسأل العلماء ما جهلت ، وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة ...

---

(١) سنشرح هذه الكلمات بعد . (٢) أخرجه الترمذى فى الزمر ، وابن ماجه فى الأطعمة .

وإياك أن تعمل برأيك [1] شيئاً .

وخذ بالاحتياط فى جميع ما تجد إليه سبيلاً .

واهرب من الفتيا هروبك من الأسد ، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً .

قم عنى يا أبا عبد الله فقد نصحتُ لك .

ولا تفسد علىّ وردى ، فإنى امرؤ ضنين بنفسى ، والسلام على مَن اتبع الهدى » .

هذه وصية جيدة رأيتُ إثباتها لما فيها من خير وإخلاص ، ولأنها نموذج حسن من الآداب التقليدية الشائعة فى تراثنا الدينى القديم ...

وقد أحببتُ أن أتبعها بشرح يكشف عن حقيقة ما جاء بها من تعاليم .

فإن سوء الفهم قد يجعل تناول هذه النصائح ضاراً لا نافعاً ..

وعندما نعرضها على المقررات الإسلامية الثابتة فسنسدى بذلك خيراً إلى أصحابها الأوائل ، وإلى قرائها المعاصرين .

ثم - من قبل ذلك وبعده - إلى ديننا الحنيف .

إن العلم لا يتم تحصيله إلا بالتعلم ، وقول جعفر الصادق : « ليس العلم بالتعليم » ، لا يراد به ظاهره ، إنما يراد به حُسن الانتفاع وصدق العمل .

فهناك كثير من الناس يحفظون معارف جيدة ويستوعبون كتباً قيِّمة ، بَيْد أن العلم الذى ظفروا به لم يتجاوز أدمغتهم ، فهو تصورات يمسكها الذهن وحسب .

وعندما يكون العلم صوراً ذهنية مقطوعة عن السلوك ، فهو قسيم للخيال البعيد عن الواقع .

وهذا النوع من العلم قليل الجدوى ، بل إن النبى ﷺ ، قد حذّر من الوقوف بالعلم إلى حد اختزانه فى الذاكرة وإدارته على اللسان وكفى .

---

(١) سنشرح هذه الكلمات بعد .

عن جابر ، أن رسول اللّه ﷺ ، قال : « العلم علمان : علم فى القلب ، فذاك العلم النافع ، وعلم على اللسان ، فذاك حُجّة اللّه على ابن آدم » [1] .

والدراسات فى جملتها - سواء أكانت دينية أو مدنية - يجب أن يصحبها قصد نبيل ونية خالصة .

فأما الدراسة الدينية فأمرها واضح ، إن العلم فيها طريق العمل ، ونواة التربية ، وأساس التسامى بالنفس الإنسانية .

وبقية المعارف البَشرية على رحابة آفاقها يجب أن تُسخَّر فى النفع العام ، لكننا رأينا للأسف كثيراً من علماء الاقتصاد والكيمياء والذَرّة وغيرهم يضعون أنفسهم فى خدمة الساسة المدمرين ، والحكام الذين لا يتقون اللّه ، ولا يرحمون عباده . كما رأينا كثيراً من علماء الدين يطلب بما عنده دنيا الناس ...

وكان ينبغى أن يغالوا بما أوتوا وأن يتوسلوا به إلى غاية أزكى .

روى عن عمار بن ياسر ، قال : « بعثنى رسول اللّه ﷺ ، إلى حى من قيس أعلّمهم شرائع الإسلام ... فإذا قوم كأنهم الإبل الوحشية طامحة أبصارهم ، ليس لهم هم إلا شاة أو بعير ، فانصرفتُ إلى رسول اللّه ... فقال : « يا عمار ما عملت » ؟ فقصصت عليه قصة القوم . وأخبرته بما فيهم من السهوة !!! فقال : « يا عمار ألا أخبرك بأعجب منهم ؟ قوم علموا ما جهل أولئك ، ثم سهوا كسهوهم » !!! ... أى غفلوا كغفلتهم .

والواقع أن ارتفاع المستوى العلمى وسقوط المستوى النفسى والخُلُقى شىء مثير ! وهو بلاء شاع فى مجتمعات كثيرة .

---

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة .

وعلاجه لا يكون بالاستزادة من العلم ، وإنما يكون باستغلال الموجود منه على خير الوجوه ...

وذاك ما بدأ جعفر الصادق يلفت إليه النظر ويرسم له الطريق .

إن العلم - خصوصاً الدينى منه - يجب أن يتجرد صاحبه للّه ، وأن يتحول على عجل إلى تقوى ونصيحة ...

تقوى تعصم صاحبها وتنير حياته ، ونصيحة تدعم المجتمع ، وتحق الحق ، وتبطل الباطل .

عن علىّ بن أبى طالب أنه ذكر فتناً تكون فى آخر الزمان ، فقال له عمر بن الخطاب : متى ذلك يا علىّ ؟ فقال : « إذا تُفقه لغير الدين ، وتُعلم العلم لغير العمل ، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة » .

وعندما يعمل المرء بما يعلم تنشأ لديه بصيرة يميز بها الحق من الباطل والخير من الشر ، وذلكم هو النور الذى يقذفه اللّه فى قلوب الصالحين .

إن هذا النور يومض فى الصدر نتيجة فقه حسن ، وعمل حسن ...

وسيُحرم منه صنفان حتماً : العُبّاد الجهلة ، والفقهاء المقصّرون ...

فإن العابد الجاهل خطر على نفسه وأمته بقصور عقله !

والفقيه المنحرف خطر على نفسه وأمته بقصور نيّته وسوء وجهته ...

* * *

والمسلم مكلّف بتدبير أمره والتفويض لربه معاً ، يبذل جهده فى أداء واجبه ، ثم يدع ثمرات عمله لحكم اللّه .

ألم ترَ إلى مؤمن آل فرعون كيف استمات فى بذل النصح وإظهار الحق وحماية موسى واقتياد قومه إلى النجاة ، حتى إذا أفرغ ما فى جعبته قال :

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١) .

والكتاب والسُّنَّة يتجاوبان مع الفطرة فى مطالبة الإنسان بالحرص على ما ينفعه وتجنب ما يضره ..

إلا أنه لوحظ أن المرء فى طلبه ما ينفعه قد يطمع فى زيادات لا حدود لها ، من مال أو جاه أو ما شابه ذلك .

فإذا حرمه اللّه ما يشتهى باء بالحزن ، بل نغص عليه الحرمان المحدود ما لديه من نعماء كثيرة !!!

وقد تصيب الإنسان - مع حذره - مآسٍ لم تكن فى الحسبان ، فيستغرب كيف تسللت إليه تلك الآلام مع شدة الحيطة ، أو كيف كبت به الحظوظ مع قيامه بما عليه من فروض ؟

وفى مثل هذه الحالات ينبغى التسليم للّه ، والتفويض إليه فيما قضي ...

وجعفر الصادق رجل مُطارَد من حكومة ذلك العصر ، يرقب فى أية لحظة أن يُقاد إلى مصرعه ، كما اقتيد غيره من آل البيت النبوى !

فماذا عساه يفعل إلا أن يستكين للّه ؟

وأن ينتفع باللحظة الحاضرة فى عبادة ربه ؟

إنه لا يملك أكثر من ذلك ؟

أما إسقاط التدبير عن البَشر فكلام ساقط ...

ولا يمكن أن يخطر ببال جعفر الصادق ..

ولابن عطاء اللّه كلمة افتتح بها حكمه المشهورة ، قال : « إرادتك التجريد

---

(١) غافر : ٤٤

مع إقامة الله إياك فى الأسباب ، من الشهوة الخفية . وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد ، انحطاط عن الهمة العلية » .

وهذه الكلمة عندى تخفيف من قلق ألوف الناس فى أعمالهم ووظائفهم . إنك لو سبرت أغوار مَن حولك ، وتعرّفت مبلغ رضاهم بما هم فيه ، ما وجدتَ إلا شاكياً مكتوم الشكوى ، أو مؤملاً محسور الأمل ...

وأغلبهم يعتقد أنه لو كان فى مكان كذا ، أو لو تيسر له كذا ، لكان أفضل له ..

وقد يكون بعضهم صادقاً ومصيباً ، غير أن جمهرتهم لا تحسن الانتفاع الكامل بأوضاعها الحالية ...

ولو غلّبوا الرضا ، والتفاؤل لاستثمروا ما هم فيه استثماراً أوسع دائرة ، وأوفر حصاداً .

وعواطف الناس بإزاء ما يواجهها أو ما يُفرض عليها ، لا تتسم غالباً بالحق ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

إننى أحياناً كنت أنفر من وظيفتى الإدارية وأتمنى العزلة ، وأحسد مَن لديهم ثروة تكفيهم مؤنة الاختلاط بالخَلْق ..

وأحياناً كنت أكره العزلة وأطلب العمل بشدة لأمحو وأثبت ما أرى محوه وإثباته ..

وكنت أحياناً أشعر بأن المعزول فارٌّ من المعركة ، أو أسير سقط عنه التكليف .

وكنت أشعر بأن العمل توطيد مكانة ووسيلة خدمة .

إن النفس الإنسانية بارعة فى مزج رغباتها بالمعنويات الرفيعة ! وإلباس مآربها ثوب الحق الناصع ..

---

(١) البقرة : ٢١٦

أيّاً ما كان الأمر ، فالوسيلة تقوم على إفراغ الوسع فى توفير الضمانات التى يراها المرء محققة لخيره ، صائنة لحاضره ومستقبله ..

ثم قبول الواقع بعد ذلك دون ضجر مؤذ أو ضيق مغرٍ بالسلبية والعجز .

لا .. لنثق فى اللّه ، لنسلّم له ما أراد ، ولنشعر بأن له حكمة أعلى وحكماً أنفذ .

وفى حدود الإمكانات التى أذن بها نقبل على عملنا جادين راضين ..

وليس معنى هذا بداهة أنّ الدين يأذن بترك الأسباب والتماوت فى ميدان الحياة .

إذا قلتَ لحام ودّ لو كان طبيباً ، أو لكاتب لو كان ضابطاً : ارض بما قسم اللّه لك .. فليس معنى هذا أنك تأمره بالانسحاب من الدنيا .

المعنى الوحيد أنك تقول له : فى نطاق الواقع الذى لا يمكن تغييره ، فإن إعادة الفلك الدوّار كى تبلغ ما تتمنى مستحيل .

ونعود إلى كلمة ابن عطاء اللّه ، إنه يريد أن يقول : « إذا قررت السير إلى اللّه فإنك تستطيع الانطلاق إليه فور قرارك هذا مهما كان المنصب الذى تتولاه ، أو الحرفة التى تشتغل بها ، أو الحال التى وصلتَ إليها .

وقد تحدثك نفسك بأن ترك عمل ما ، أو الاشتغال بعمل ما يكون أعون لك على السير ، وهذا خطأ .

فالتجرد من الأسباب القائمة ضرب من البطالة .

والتطلع إلى الاشتغال ببعضها لون من الرغبات المريبة .

ذلك معنى قوله : « إرادتك التجريد مع إقامة اللّه إياك فى الأسباب ، من الشهوة الخفية . وإرادتك الأسباب مع إقامة اللّه إياك فى التجريد ، انحطاط عن الهمة العلية » .

عش فى الواقع ، فإذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون .

فإرادتك أنت قاصرة ومتهمة ، أما إرادة الله لك فحكيمة رحيمة ، ولا تتعلق بالمنى ، وتبن عليها القصور .

وقد عقب ابن عطاء كلمته هذه ، بكلمة أخرى تتم معناها : « سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار » .

وجعفر الصادق ، وابن عطاء الله ، رجال مربون ، وهم يستقون من ينابيع الإسلام ، فكلماتهم لا تعدو حدوده .

* * *

ورياضة النفس بالتجويع - كما أثر عن بعض الرهبان والزهّاد قديماً مسألة فيها نظر ، فإن الجسد الإنسانى إذا احتاج فى صحته ونمائه إلى رطل من الطعام فنقصه درهماً من هذا المقدار لا يجوز ..

وظلم الجسد ذريعة إلى تعطيل وظائف المرء الحيوية والخُلُقية والعبادية .

ولا يوصي بهذا عاقل ، ولا يرضي بذلك دين .

إلا أنّ المشاهَد فى حياة الناس ، خصوصاً أهل هذا العصر أنهم يدللون أبدانهم ، ويعلقونها فوق حاجتها بكل ما تيّسر ..

وجهاد الجماهير الآن يتجه نحو توفير المزيد من الأقوات والمرفهات ..

نعم .. توجد جماهير جائعة فى بعض القارات ، ولكنه جوع فقر وعجز ، لا جوع رياضة ومجاهدة .

والإسلام ، على أية حال ، يكره هذا التجويع ، مفروضاً كان أو مقصوداً .

وهو قد أباح الطيبات وطلب بإزائها الشكر وحسب : ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ للّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١) .

ومع تأكيدنا هذا المبدأ فنحن باسم الإسلام نحذّر من دوافع الشره والمكاثرة التى عُرفت قديماً وحديثاً فى الأفراد والجماعات ..

---

(١) البقرة : ١٧٢

إن الواجدين قلّما وقفوا فى الأكل عند حد الاعتدال ، وقلّما رضوا بما دون الشبع التام ..

ويندر أن يطوى أحدهم بطنه لأخيه ، أو يقاسمه ما عنده .

ومن حق الإسلام أن يرفض هذه الأثرة السائدة وأن يعترض الرغبة المجنونة فى إرضاء النفس وإرواء مطامعها ..

إننا نكره سوء التغذية ونقصها ، ونعمل على حماية الشعوب منها ..

فلنعمل بالقوة نفسها على تجنب الإسراف وشحن المعد بما تنوء بحمله وهضمه ..

والأمر يحتاج إلى تربية مبكرة حتى تتكون العادات التى تحكم الناس فى مآكلهم ومشاربهم .

فهذه شئون لا يضبطها ارتجال الأوامر .

ثم إن الأجسام مختلفة ، والأعمال وما تتطلبه من طاقة ووقود مختلفة كذلك .

والإسلام يهتم فى هذا المجال بأمور ، ألا يكون الأكل غاية للحياة ، فمن السقوط أن يسخِّر المرء مواهبه العظيمة لهذه الغاية التافهة .

إنه وسيلة للعيش وأداء الواجبات التى خُلق الناس من أجلها ...

والوسيلة تستمد شرفها من شرف النتيجة المترتبة عليها ، ومن ثمة كان طعام الأتقياء ومنامهم عبادة ، لأنه يمدهم بالقوة والراحة اللتين يحتاجون إليهما .

ويرفض الإسلام عداوة الجسد ، ويرى فى طيبات الحياة متعة مقصودة ، لكن فى حدود قوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ ﴾ (١) . ومع استشعار أن الله جعل الدنيا مهاداً للأخرى وقنطرة توصل إليها ، وليست دار استقرار وطمأنينة ..

توجد الآن جماهير كثيفة من الوجوديين والشيوعيين والإباحيين لا يمتد بصرها إلى أبعد من هذا التراب .

---

(١) الأعراف : ٣١

وهى من أجل ذلك تلتهم ما يُتاح لها ، على أساس أنه الأول والآخر ، فما بعد هذه الحياة حياة !؟

وقد يختصمون بينهم على المقادير التى توزع ، كيلا يكون حظ أحدهم أربى من الآخر !؟

هذا اللون من التفكير المادى والانطلاق المادى هو ما تناول القرآن أصحابه بقوله : ﴿ وَيَوْمُ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (١) .

* * *

والرأى الذى ينهى جعفر الصادق عن العمل به هو الهوى والابتداع ، واستحداث ما لا أصل له فى دين الله .

ولا خلاف بين العلماء فى أن التعبد المقبول أساسه الاتباع الدقيق وتحرى مرضاة الله ورسوله .

ومن حسن الإيمان أن يتعرف المرء أولاً ماذا قال الدين ؟ قبل أن يتقدم بأى اقتراح فى أية قضية !!! فإذا كان هناك توجيه لله ورسوله فلا كلام لأحد .

وذلك بعض ما يوحى به قوله ، عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

فليؤخر الإنسان نفسه ورأيه حتى يتبين ما هنالك من توجيهات السماء ..

فإذا ظهر أن هنالك أمراً أو نهياً مال إليه بقلبه وعقله ، وطرح ما عنده لفوره ، وذلك لقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به » .

---

(١) الأحقاف : ٢٠ (٢) الحجرات : ١

وهذا سر قول جعفر الصادق : « إياك أن تعمل برأيك شيئاً » .

وهناك عُبَّاد جُهَّال لهم نيَّات حسنة ولديهم حماسة فى إرضاء اللّه ورسوله ، بَيْد أنهم بما يألفون فى أنفسهم من طيبة وصدق ، يتجوّزون فى فعل أشياء وترك أشياء على نحو يخالف المأثور من كتاب اللّه وسُنَّة رسوله .

وهذا مسلك طائش ، بل قد ينتهى بالمروق من الدين ، والاعتداء على حدوده وصد الناس عن قبوله .

وكم من عابد أحمق فعل بالإسلام ما فعلته الدبة بصاحبها ..

إنه لا بد من معرفة أصيلة بالدين حتى يصح العمل به وله .

وفى الحديث : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » [1] .

وليس من الرأى المنهى عنه أن يجتهد أولو الأمر وأهل الذكر فى فهم النص ، والقياس عليه ، ورد المشكلات المحدثة إلى القواعد العامة فى الكتاب والسُنَّة .

بل هذا المسلك حياة للدين وتوسيع لدائرته حتى تشمل كل شىء .

واختلاف وجهات النظر هنا أمر طبيعى لا نُكر فيه ..

وكلها جدير بالاحترام ، وللمسلمين أن يؤيدوا منها ما شاءوا دون تعصب ، وأن يتركوا ما شاءوا دون نكير .

وفى دراسة الفقه المقارن يستطيع الناظر أن يوازن بين شتّى المذاهب وأن يؤثر فهماً على فهم ، وقد يخطىء أو يصيب دون حَرَج ، فذلك من الاجتهاد المأجور وليس من الهوى المنكور .

ونتساءل أخيراً عن الورد الذى شغل الإمام جعفراً وحرص على أدائه ! ما هو ؟ وما تلك الأوراد التى شاعت قديماً بين جماهير المسلمين ، وانقسموا فى تلاوتها والتزامها طوائف وطرقاً ؟ وما صلة ذلك كله بالإسلام ؟

---

(١) أخرجه الترمذي فى العلم ، وابن ماجه فى المقدمة .

نحن نقرر ابتداء أنه لا حق لبشر ما فى إنشاء عبادة أو استحداث نُسُك ..

وإذا وقع أن أمرءاً تطوع بقراءة أذكار معيَّنة ، واستحب المواظبة عليها ، فليس له أن يُلْزِم غيره بقراءة هذه الأذكار ..

فالحكم بأن هذا مفروض وذاك مندوب حق الشارع وحده لا يشركه فيه بَشَر !

وقد جاء فى السُنَّة أن تلاوة القرآن قُربة عظيمة .

ووقَّت النبى ﷺ ، مقدار ما يُقرأ من كتاب اللّه ، فاستحب أن يُختم فى شهر على الأكثر أو فى أسبوع لمن نشط أن يختمه .

ولا يحسن أن يختمه فى أقل من ذلك حتى لا تضيع عليه فرصة التدبر ..

وهذا الورد القرآنى يمكن التجاوز عنه إذا كان هناك شغل بالتجارة أو الجهاد : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ منكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فى الأرْضِ يَبْتَغُونَ من فَضْلِ اللَّه وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ منْهُ ، وَأقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ﴾ (١) .

أى أن الفرائض لا بد من أدائها كاملة ، أما النافلة فتؤدى عند توفر الوقت وإقبال النفس .

والاشتغال بالتجارة والجهاد عبادة كإقام الصلاة وتلاوة القرآن ..

وهناك أذكار مأثورة تقال فى الصباح أو المساء ، وقد أحصت كتب السُنَّة جملاً رقيقة منها وبيَّنت متى تُقال وثواب القائل .

وهى كلمات لا يستغرق ترددها دقائق تُعَد على أصابع اليد ..

وهذه الأذكار - وسائرها من قبيل التطوع المحض - لا تشغل عن تجارة ولا جهاد .. ولا يتصور عاقل أن يكون ترددها أهم من القرآن الذى رأينا حكم تلاوته آنفاً ..

---

(١) المزمل : ٢٠

وقد شعرتُ - من تجربتى - أن ترتيل الجزء من القرآن يستغرق نصف ساعة ، وأن ختم الصلاة يستغرق دقيقتين !!

وقد كانت لى أوراد من المأثور عن صاحب الشريعة ، أنشط لها حيناً ، فإذا اشتغلتُ بالتأليف أو العمل العام تركتها مع حبى لها .

والذى أريد لفت النظر إليه بقوة وحسم أن الدين فرائض ونوافل ، وأن النوافل لا مكان لها إلا بعد الانتهاء من الفرائض .

قد نقول : جمهور المسلمين يعلم ذلك !!

ونقول : لكنه لا يحسن التطبيق ، إن التفوق العلمى والاقتصادى فريضة على الأمة الإسلامية ..

والمدرس الذى تشغله ركعتا الفجر عن الإسهام فى هذا التفوق يكفيه أن يؤدى فريضة الصبح ، ثم يستغرق فى أداء الفرائض التى ترجح كفة الإسلام فى الميادين التى تأخر فيها !!

وبالتالى فكل ورد يأخذ وقتاً من الإنسان على حساب تلك الفرائض فهو مردود ..

وذلك كله ، إذا كان الورد مشروعاً .. أما إذا كان تأليف شخص من الناس يشغل به أتباعه من المسلمين فالأمر من أوله إلى آخره بدعة ونحن مع عبد الله ابن مسعود فى قوله : « الاقتصاد فى السُّنّة خير من الاجتهاد فى البدعة » .

والذى نفهمه من حال جعفر الصادق أن الرجل كان بغيضاً للخلفاء العباسيين ، وأنهم كانوا يخشون التفاف الجماهير به ، مما يؤثر فى دولتهم ..

وقد آثر الرجل الصالح أن يتجنب الفتنة ، وأن يعكف على القراءة والذِكْر ، وأن يلقن بعض مريديه دروس الفقه بعيداً عن ضجيج السياسة .

ولعل ذلك سر رغبته فى العزلة وحرصه على قراءة أوراده ، والفرار بنفسه ودينه ...

* * *

فن العزلة والاختلاط

فى هذا العصر اختفت تقريباً المذاهب الداعية إلى الانطواء على النفس والعزلة عن المجتمع .

وربما بقيت فى مجال النزعات الخاصة بعض آثار الاستيحاش من الخلق ، والابتآس بالخلطة ، لكن هذه البقايا لا تؤثر فى قيمة الاتجاه الإنسانى العام إلى التعاون والاختلاط ، وبناء السلوك البَشرى على الإيلاف والاستئناس ..

ونحن راضون عن هذا الاتجاه الجَماعى الودود ، فإن الانكماش عن الحياة العامة ليس شارة صلاح ولا طريق إصلاح ، بل قد يكون دليل ضعف وانهزام ، أو نشداناً للراحة ، مع ترك الدنيا تموج بما تموج به .

ورسل اللّه لم يتركوا الجماعات البَشرية تسير وحبلها على غاربها ويقبعوا فى صوامع قصية يتأملون ويتألمون ! كلا ..

لقد عاركوا الشر وعالجوا أسبابه وتحملوا بجلادة ما تركه هذا العراك فى أنفسهم وأهليهم من أحزان وكروب ولم يكن هناك بُدٌّ من هذا المسلك .. فإن الأفراد يعيشون غالباً وفق التقاليد والعادات الشائعة فى الأمة ويبنون مكانتهم ووجاهتهم على الانسجام معها ..

وهذه التقاليد والعادات كثيراً ما تغلب فطرة اللّه فى الأنفس ، وتعمى عن رؤية آياته فى الآفاق ، فتنشأ الأجيال المقبلة بعيدة عن الصلاح والاستقامة بحكم منابتها التى خرجت منها ..

ومن ثَمَّ فلا طريق لنصرة الحق وغلبة الخير إلا بالجهاد المضنى لجعل عادة حسنة تغلب عادة رديئة ، وتقليد صالح يغلب تقليداً فاسداً ، وتيار نقى يغلب تياراً ملوثاً ..

وتلك هى الغاية من جهاد الدعوة .

ولعل الثواب العظيم المرصد لخطوات المجاهدين يرجع إلى عظم آثارهم فى الحياة وامتداد النفع بكفاحهم المادى والأدبى .

ومن ثَمَّ فإن العُبَّاد العاكفين على طاعة الله فى قمة جبل أو فى جوف غابة يطالعون عن بُعْد غبار المعركة بين الحق والباطل أو ييأسون من نتائجها ويستريحون من متاعبها .. هؤلاء فى الحقيقة ناس واهنو العزم والإيمان هابطو المكانة فى الدنيا والآخرة .

بل ربما لقى بعضهم الله بإثم الفارّ من الزحف أو القاعد وراء المجاهدين .

إن الإسلام يمد أبناءه بفيض من اليقين يتجاوز أشخاصهم إلى ما حولها فهم يتركون طابعهم كله أو بعضه على بيئتهم ..

وإذا استعصت مواطن الشر على هذا الإيحاء الكريم فهى أعجز من أن تبسط ظلمتها علي القلوب المشرقة ، وهى أعجز من أن تكرهها على الفرار والتوارى عن الأعين ..

وسيبقى أهل التقى فى جنح الليل السائد منارات قائمة تومض بالحق فتهدى وتنجى ..

ومع هذه المعانى التى شرحناها فنحن نقرر أن المرء تمر به فترات يحتاج فيها إلى أن يخلو بنفسه وينأى عن الناس بجانبه ويراجع فى صمت العزلة مفكراً فى ما له وما عليه .. ما أحسن وما أساء .. ما يفعل وما يترك ..

إن ضجيج المجتمعات أحياناً يفقد الإنسان وعيه أو يكاد ..

وأظن أنه قد يثبت علمياً أن مستوى الذكاء فى زحام الجماهير يهبط وأن التجمعات المنطلقة يحكمها رأي عام يشبه « متوسط المحصول » ..

ومتوسط المحصول يتلاشى فيه الإنتاج العالى فى جوار الإنتاج الردىء إذ تذهب زيادة المحصول هذا فى نقص ذاك ..

ومن ثَمَّ وجدنا كثيراً من الناس ينشدون أن يخلوا بأنفسهم ليستعيدوا فى خلوتهم حدة بصيرتهم وتألق أذهانهم .

وما يستغنى أولو النُهَى عن هذه الساعات الغالية لا ليستجمُّوا فيها بل لتثوب إليهم مواهبهم وترجع خصائصهم ثم يواجهوا الدنيا بحقيقتهم الكاملة ..

وفى الجاهلية الأولى رغب النبى ﷺ فى العزلة فكان يهجر أم القرى إلى غار منفرد فى جبل أشم ينقطع دونه لغو الناس وإثمهم .

وكان النبى الكريم يحاول فى سكينة الغار أن يقترب من الحقيقة التى ضلَّ عنها عالَم غريق فى الشرك والعصيان ..

وقد طلع عليه فجر الوحى فى أيام تحنُّثه واستراحة فؤاده الشريف إلى حياة التأمل العميق .

فلما حمل أعباء الرسالة وشرع يخلص العالَم من قيود الخرافة وآصار البغى كان يستعين على جهاد الجماهير الشكسة النافرة بالساعات التى يخلو فيها إلى ربه ، ويبصر فيها نفسه وما يعمل وما يلقى ..

وقد استحب لأصحابه - رضوان الله عليهم - أن ينسحبوا بين الحين والحين من مشاغل العيش ومشكلات الأهل والولد وأن يفروا إلى الله فى بيته ، ويعكفوا على عبادته .

والاعتكاف فى المسجد إطراح موقوت لشئون الدنيا وإقبال مضاعف على شئون الآخرة وإنابة جادة إلى الله يشترك فيها الشعور واللسان والظاهر والباطن ..

وإذا كانت أيام رمضان قد اجتذبت الرسول ﷺ إلى غار حراء راغباً راهباً ذاكراً قانتاً فإنّ هذه الأيام نفسها قد علّقت قلبه - بعد الوحى - بالمسجد يأوى إليه ويتحنّث فيه هو وصحبه الأبرار .

وقد شهد المسجد النبوى بالمدينة المنوّرة ليالى وضيئة لأولئك العابدين المنقطعين إلى الله ، الآملين فيه ، المعتزين به ..

فلنطالع هذه الصورة الطريفة من مرويات البخارى ومسلم . قال أبو سعيد الخدرى : اعتكف رسول الله ﷺ فى العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال له : إنّ الذى تطلب أمامك .. فاعتكف العشر الأوسط

فاعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال : إنَّ الذى تطلب أمامك . ثم قام النبى ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان فقال : « مَن كان اعتكف معى فليرجع فإنى رأيتُ ليلة القدر وإنى أنسيتها وإنها فى العشر الأواخر فى وتر ، وإنى رأيت كأنى أسجد فى طين وماء » .

قال أبو سعيد : « وكان سقف المسجد جريداً من النخل وما نرى فى السماء شيئاً فجاءت قزعة فمطرنا فصلّى بنا النبى ﷺ حتى رأيتُ أثر الطين والماء على جبهته تصديق رؤياه » [1] .

أىُّ ليلة سمحة مباركة كانت هذه الليلة التى اتصل فيها الذكْر والتسبيح ؟

وصاحب الرسالة ورجاله الأقربون عكوف على الطاعة والتلاوة يركعون ويسجدون حتى جاءت سحابة تصبّ على أكناف المسجد ما شاء اللّه من رحمته والمتهجدون دائبون على نسكهم لا يلفتهم عن صلاتهم المطر النازل فإذا سجد النبى ﷺ رفع وجهه الشريف وبه آثار من الماء والطين .

لقد كانت هذه ليلة القدر وهى كما قال اللّه : ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [2] .

رُبَّ عمر طـــــال بالرفعة لا بالسنوات

وقطيرات زمان !! ملأت كأس حياة !!

وقد مضت السُّنّة باستحباب اعتكاف المؤمنين فى العشر الأواخر من رمضان وكان النبى ﷺ إذا دخل الثلث الأخير شدّ مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله .

وربما قال قائل : إن الاعتكاف على هذا النحو ليس عزلة ، إنه عبادة جَماعية يؤديها المؤمن مع غيره وذاك شىء غير العزلة التى حدثنا عنها آنفاً .

ونجيب بأن الاعتكاف عبادة قوامها العزلة فإن الإنسان عندما ينوى الاعتكاف يتفرغ لطاعة اللّه والإقبال عليه ويدع زوجته وشغله ولهوه .

---

(١) رواه : مالك ، وأحمد ، والشيخان . (٢) القدر : ١

وقد جعل الإسلام هذه العزلة فى إطار المسجد فلم يسمح بانقطاع فى غار أو فى غابة وذلك حتى لا تُنهى صلة المسلم بالجماعة .

والمسجد بقعة توحى بالعبادة والتبتل وعلى العاكف أن يلم شمل نفسه ويديم ذكر ربه ولا يأذن لقطاع الطريق أو لصوص الأوقاف أن يغلبوه على أمره .

إن المساجد قطع من هذه الأرض مساوية لها فى المعدن ولكنها ارتفعت قدراً عند الله والناس برفعة الغاية التى بنيت من أجلها والعباد الذين يصطفون فوقها : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ (١) .

ورأيى أن الاعتكاف ليست له مدة معينة وأن الصوم حسن فيه إذا طال أمده .

وفترات الاعتكاف القصيرة فرصة متاحة لكل مسلم يريد بين الفينة والفينة أن ينعطف إلى ربه ، لكن الفترات القصار تشبه التمارين الرياضية المحدودة من سباحة وجرى ، لها بلا ريب أثرها فى الصحة العامة غير أنها لا تدل على بطولة وتفوق ..

والاعتكاف الذى يستغرق أياماً لا يطيقه إلا قوم لهم مع الله معاملة ولهم به إلف ، وهل يتفاوت أهل الإيمان والعبادة إلا فى ذلك المضمار ؟ إنّ ما يسأم منه البعض قد يستلذه آخرون .

تدبر هذا الحديث عن ربيعة بن كعب رضى الله عنه قال : كنت أخدم النبى ﷺ نهارى فإذا كان الليل أويتُ إلى باب رسول الله فبتُّ عنده فلا أزال أسمعه يقول : « سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان ربى » حتى أملّ أو تغلبنى عينى فأنام فقال يوماً : « يا ربيعة ، سلنى فأعطيك » فقلت : أنظرنى حتى أنظر ، وتذكرتُ أن الدنيا فانية منقطعة فقلت : يا رسول الله ، أسألك أن تدعو الله أن يجنبنى من

---

(١) النور : ٣٦ - ٣٧

النار ويدخلنى الجنة - وفى رواية : أسألك مرافقتك فى الجنة .. فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : « مَن أمرك بهذا » ؟ قلت : ما أمرنى به أحد ولكنى علمتُ أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذى أنت منه ، فأحببتُ أن تدعو الله لى ، قال : « إنى فاعل فأعنى على نفسك بكثرة السجود .. » [1] .

لقد كان رسول الله ﷺ لا يفتر من ذكر حتى يمل « كعب » أو ينام ، فلما طلب من رسول الله أن يصحبه فى الجنة طلب منه أن يرشح نفسه لهذه المنزلة بإدامة الصلاة ..

والإنسان الذى يكثر السجود يقبل على الله بنفس محبّ ورغبة مشتاق والاعتكاف على مثله يسير ، طال أو قصر .

والاعتكاف اليسير أو الطويل ليس جلوس بطالة فى المسجد كما يتوهم البعض ، فإنك إذا قلت : شاطىء البحر متعة ، عنيت أن ذلك لمصطاف يستعين بالراحة على العمل وبالاستجمام على استئناف الكفاح ..

والمرء فى مكابدته للمعايش ومخالطته للخلائق قد يتيه فى أودية الحياة وينسى ما بعدها فإذا انتزع نفسه ليذهب إلى المسجد مصلياً فهو يذهب ليستعيد صوابه ..

فإذا بكر فى الذهاب قليلاً وقصد أن يفتح أقطار قلبه لإيحاء المسجد فهذا اعتكاف مشكور ، وفى الحديث : « إذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه : اللّهم اغفر له ، اللّهم تب عليه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » [2] .

إننا فى عصر ينشد المتاع من ألف وجه ويظن ما ناله منه حظاً جسيماً فلنلوِ زمامه إلى لون آخر من الكمال الإنسانى الأسمى .

---

(١) هذا اللفظ للطبرانى فى الكبير ، ورواه : مسلم وأبو داود مختصراً (راجع الترغيب : ٢٤٩/١) ، ورواه النسائى وأحمد .

(٢) رواه الشيخان وغيرهما .

إن غدوة إلى ناد للقاء الزملاء متعة .. لا بأس .

ومن المتع التى لها مذاق آخر غدوة إلى المسجد لمناجاة الله واللبث فى حضرته .

فإذا ما استمكنت هذه العادة فى القلب رفعت صاحبها إلى السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله [1] ..

فمن هؤلاء السبعة : « رجل قلبه معلّق بالمساجد » .

إن الاعتكاف سُنّة مهجورة أو لعله سُنّة غير مفهومة خصوصاً هذه الأيام التى دارت فيها الأهواء بالرءوس كما تدور الخمر بشاربها ..

وهو فى حقيقته واحات روحية مزهرة على درب الحياة الطويل .

* * *

(١) الحديث رواه الجماعة .

ينابيع التوحيد

جاء فى السنن أن الباقيات الصالحات هى : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » [1] .

وتسميتها بالباقيات ، لأنها أوصاف لذات الله الذى لا ينسخ وجودَه عدم ، ولا يقطع بقاءه زوال . وصفة الخالد خالدة معه ...

وكونها صالحات ، ضمان لفلاح قائلها ، وضياء يتألق بين يدى المؤمن يوم اللقاء الأخير .

ومَن ألف ذكر الله فى هذه الدنيا كانت عودته إليه أبعد ما تكون عن الوحشة والجفاء ، وأقرب إلى الأنس والبشاشة ...

وقد وردت كلمة « الباقيات الصالحات » فى موضعين :

قوله تعالى : ﴿ المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [2] .

وقوله جَلّ شأنه : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلاَلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً * وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ [3] .

وقد يبدو للقارىء أن المعنى المتبادر يشمل جميع الطاعات ، وشتّى القربات ، وليس مقصوراً على تلك الكلمات التى أحصيناها ..

ونحن لا نرد هذا المعنى العام ، وإنما نشرح تلك الكلمات المأثورة المشهورة ،

---

(١) رواه : مالك ، وأحمد ، والطبرانى ، وابن ماجه (راجع ابن كثير : ٣/٨٧/١٣٥) .

(٢) الكهف : ٤٦ (٣) مريم : ٧٥ - ٧٦

وسوف يبدو من شرحها أنها المهاد لكل خير ، والأساس لكل حُسْن ، وأنها روح كل عبادة تصعد من الأرض إلى السماء

ولا بأس من تفسير موجز للآيتين السابقتين .

إن الإنسان يحب كثرة الأموال والأبناء ، ويرى فى ذلك متعته ومنَعته .

وهذه طبيعة غير منكورة ولا محقورة ، ما دام يصحبها حُسْن القصد وشرف الهدف ...

وغاية ما يُطلب من الإنسان ، ويُذكَّر به إذا غفل عنه ، ألا ينسيه الوجود المؤقت على ظهر هذه الأرض الوجود الدائم الذى ينتظره بعد هذه الحياة .

وإذا سرَّه فى حياته العاجلة أن يكون سعيداً مكيناً ، فأبهج من ذلك وأعظم أن يكون هناك أسعد وأمكن ، وسبيله إلى ذلك الباقيات الصالحات .

أما الآية الأخرى فهى تصف الكافرين المعاندين ..

أنهم قد يتمتعون طويلاً فى الدنيا ، وتحفهم صنوف الشهوات ، وتحميهم أنواع السُلطات ، لكن لا بد من نهاية لهذا الإمهال .. إما بالهزيمة الماحقة فى الدنيا ، وإما بالبطشة الكبرى فى الدار الآخرة ...

وعندئذ ينهار السلطان ، وتتلاشى القوي ، ويلحق الخزي بأهله .

أما المهتدون فيجتازون عقبات الحياة ، ويطوون الليل والنهار وهم يؤدون الحقوق لله .

ويوم يلقون ربهم فسيكون ذلك أسعد أيامهم وأملأها بالنعمة والرضا إذ سيحصدون ثمرة ما غرسوا من الباقيات الصالحات ..

* * *

والآن ، لنتدبر معانى هذه الكلمات : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ..

تسبيح الله تنزيهه عن كل نقص ، ومباعدته عن كل عيب ، فلا يستشعر الإنسان مع ذات الله إلا كل جلال وكمال .

والمؤمن هو الذى يحس ذلك ويألفه .

وهناك للأسف كثير من الناس ينسب لله ما لا يليق به ، بل هناك مَن ينكر وجوده أصلاً ، كالأعمى الذى يعيش من ضرارته فى ظلمة دائمة ، فهو ينكر الضوء ولا يعترف بوجوده ، والله منزّه عن جحد الجاحدين وجهل الجاهلين ..

إننا ومَنْ حولنا أثر وجوده ، ومَن ظن أن النار التى تشتعل فى الشمس قد صنعت نفسها ، أو الرقة السائلة فى الماء ، أو النضرة الشائعة فى الزرع ، أو سائر ما نرى وما لا نرى من خلق الله ، قام بنفسه فهو مزوّر كبير ، ومبطل جرىء ..

والقرآن الكريم عندما يرد مزاعم المشركين ، يصور الألوهية التصوير الذى يدمغ الجاهلين والجاحدين جميعاً : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْاْ إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (١) .

إن الإله الذى أعطى الأفلاك ضخامتها وسعتها ، وأعطى العقول خفاءها وذكاءها ، لا يمكن أن يكون مماثلاً لشىء نعهده ، وهو أكبر من أن يكون ولداً أو أباً أو مَلكاً أو جنّاً .

.. ومن السفه تصور أن يكون له شريك فى الملك أو ولى من الذل ، كيف ؟ والوجود من أزله لأبده فقير إليه ، قائم به .

.. فى تكوين الذَرّة ما يشهد بعظمة الخالق ، وما ينفى عنه أوهام النقص .

ثم مَن يدرى ؟ إننا لا نسمع تحت الثرى ضجيج آلات توزع الألوان والطعوم على الزهور والثمار ، ولا نلحظ الحركات اللبقة التى تلف الفواكه والحبوب فى قشورها وأغلفتها ، إننا نجهل كل الجهل عمل الأجهزة المسحورة التى تصوغ الأجنة وتنسج الأدمغة والحواس والبطون والأحشاء ..

---

(١) الإسراء : ٤٢ - ٤٤

مَن يدرى الأسرار الكامنة وراء هذه الأعمال الرائعة ؟

إنه لو انشق حجاب الصمت ، وباح الكون ببعض سره لأصم آذاننا هتاف الأشياء ، وهى تسبح بحمد الله ، وتهتف بوحدانيته : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

والتسبيح العملى للناس يقوم على ربط الأفعال بما ينبغى لله من كمال .

ذلك أن الصغار قد تفرض عليهم طباعهم الصغيرة أن يسيئوا الظن بالله ، فيتصوروا فيه أن يخلف وعده أو يحيف على عباده !!

ويدفعهم هذا التصور المريض إلى اقتراف ما لا يليق ، ولو حسنت معرفتهم بالله وسبحوه عما تخيلوا نسبته إليه لكان عملهم أصلح وسلوكهم أرشد ..

تدبر قصة أصحاب الجنة التى ذكرها رب العالمين فى كتابه ..

هؤلاء قوم غلبتهم الأثرة ، وداخلهم الشح ، وأجمعوا أمرهم على أن يجنوا ثمرة بستانهم فى غفلة من الفقراء ، حتى لا يطالبوهم بشىء حين الحصاد ..

إن أولئك الأغنياء يعتقدون أن الصدقة تنقص المال ، ولا يطمئنون إلى أن الله يخلف على المنفقين ما أنفقوا وأضعاف ما أنفقوا ...

وهؤلاء الأغنياء لا يرون أن يشركوا معهم أحداً فى فضل الله عليهم ، فهم يرون أن الله قصد إلى إتعاس الفقراء لما قدّر عليهم رزقه ، وقصد إلى تنعيم الأثرياء لما بسط عليهم خيره !!

ومن ثَمَّ فقد مضوا مع سوء ظنهم بالله ، وانطلقوا إلى بستانهم ليستأثروا بجناه ، ولكن القدر كان أسبق منهم إلى العقاب الموجع : ﴿ فَانطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْاْ عَلَى حَرْدٍ

---

(١) الأعراف : ٥٤

قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (١) .

كان اللّه قد أهلك ثمارهم ، وأضاع آمالهم فشعروا عند الحرمان بسوء صنيعهم وتذكروا صوت الناصح الذى خوفهم باللّه حتى لا يبخلوا ، والذى زيَّن لهم الكرم ، وعلقهم بوعد اللّه للكرام ألا يُحرَموا : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ؟

وجمهرة العصاة والمفرطين تقع بين نسيان للّه ، وريبة فى وعده ، ولو صدقت معرفتهم ، وطلع على نفوسهم شعاع من أسمائه الحسنى ، لتهذب سلوكهم ، وصلح عملهم .

ومما يتصل بهذا المعنى - أى تحول التسبيح من قول باللسان إلى شعور فى القلب ، إلى رفعة فى السلوك - أن يضبط المسلم مشاعره فى السرّاء والضرّاء ، ويربطها بمشيئة اللّه .

فإن أصابه شر لم يسخط على الزمان ويسب الأيام !!

والمؤمن حقاً يستكين للّه إذا وقع به ما يكره ويقول : « إنّا للّه .. » .

أما التبرم بالليالى السود فهو من سوء الأدب مع اللّه ، ومن اتهامه - سبحانه - بما لا يسوغ !!

وهذا معنى الحديث : « لا تسبوا الدهر ، فإنى أنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلّب الليل والنهار » (٢) .

والحديث بَيَّن فى أن اللّه يكره من عباده هذا التجهم لقضائه والتمرد على قدره .

---

(١) القلم : ٢٣ - ٢٩

(٢) رواه الشيخان ، وأحمد ، وأبو داود .

إن كل أفعاله بالحكمة ، وتدبيره للأمور يستحيل أن ينقصه السداد ، أو يعوزه الرشاد ، أو أن يثور عليه العباد !

وفى الحديث تسبيح لله عن هذا وذاك ..

* * *

والله تبارك وتعالى محمود فى الأرض والسماء : ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ ، وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ (١) .

وللحمد معنيان : أولهما الشكر لله على نعمائه ، والآخر الثناء عليه بما هو أهله ...

وإذا كانت نعمة الله لا تحصى ، فإن شكرها ينبغى ألا يغيض مدده وألا ينقضى عدده .

والمسلم شاعر أبداً بجميل الله فى عنقه ، ومقدِّر ما لديه من مننه ، لا ينكرها ، ولا يزدريها ..

وقد يعرض له ما يعكر باله من متاعب الحياة ، ولكن إحساسه بالنعم السابقة والنعم المرتقبة يرجح لديه كفة الرضا عن الله ، والتهوين من المصاب ويجرى على خاطره قول الشاعر :

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً فأفعاله اللاتى سررن ألوف

ومقدار الشكر يتبع دائماً شرف المعدن ونبل النفس ، فالرجل الأصيل يربو لديه الصنيع ، وتعظم لديه المنة على عكس الخسيس ..

وقد كنت أظن الجحود يرجع إلى الجهل بالنعم ، حتى رأيت ناساً تسدى إليهم الخير الجزيل ، فيأخذونه ويمرون به سراعاً كأنهم ما نالوا شيئاً ، وكأن الوجود مكلَّف بخدمتهم وحسب !!

هذا الصنف من الدواب التى تلبس الثياب ، وتمشى فى نعلين ، يجب أن يوخز حتى يصحو إلى ما يُقدَّم له ويدرك حقه ..

---

(١) القصص : ٧٠

ومن قديم كان الناس يعرفون قيم الرجال من مواقع النعمة عندهم ، وفى ذلك يقول أبو الطيب :

إذا أنت أكرمتَ الكريم ملكتـه وإن أنت أكرمتَ اللئيم تمـــردا

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومَن لك بالحر الذى يحفظ اليدا

وأشكرُ الناس لله هو محمد بن عبد الله ﷺ ، لأنه أشرف الخلائق نفساً وأزكاهم معدناً ، ولأن النعمة التى أفاءها الله عليه لا نظير لها فى الأولين والآخرين .

وإذا كان الشكر جزءاً من معنى الحمد ، فإن شكر الله ، جلّ شأنه ، ما ينفك عن مدحه والثناء عليه ، ومن هنا كان حمده عبودية كاملة ..

وقد علّمنا رسول الله ﷺ نماذج رائعة لحمد الله بالغدو والآصال .

فمما أُثِرَ عنه أنه إذا صحا من نومه قال : « الحمد لله الذى رد إلىّ روحى ، وعافانى فى جسدى ، وأذن لى بذكره » .

أتظن ذلك فى أعقاب سبات عميق وليل غافل ؟ كلا ..

عن ابن عباس ، رضى الله عنه ، قال : كان النبى ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : « اللّهم لك الحمد ، أنت قيّم السموات والأرض ومَن فيهن ، ولك الحمد ، لك مُلك السموات والأرض ومَن فيهن .

« ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومَن فيهن .

« ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق .

« اللّهم لك أسلمتُ ، وبك آمنتُ ، وعليك توكلتُ ، وإليك أنبتُ ، وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ، فاغفر لى ما قدّمتُ وما أخّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، أنت المقدّم ، وأنت المؤخّر ، لا إله إلا أنت » [1] .

---

(١) رواه مسلم وغيره .

هناك ملاحدة جاحدون ، على الأرض أن تنتج وعليهم أن يستهلكوا وكفى ..

هذه الحيوانية الطّامة ليست بدعاً فى تاريخ البَشر ، ولكنها فشت هذا العصر فشواً منكراً ، وفيهم يقول اللّه ، جلّ شأنه : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

إن الفارق بين المؤمن والكافر أن المؤمن يدرى مَن أطعمه ويعرف حقه ..

أما الكافر فهو مكفوف البصيرة . تائه عن ولى نعمته ..

المسلم يقول إذا طعم واستقى مثل ما قال محمد ﷺ : « الحمد للّه الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » (٢) ..

ويقول إذا اكتسى ثوباً : « الحمد للّه الذى كسانى هذا ورزقنى إياه من غير حَوْل منى ولا قوة » (٣) .

وتحميد اللّه فى صِيَغ الكتاب والسُّنّة كثيراً ما يجىء مشروحاً بذكر أوصاف اللّه وأفعاله التى تطوى الأفئدة على تمجيده وإعظامه ، وإبراز آلائه ..

ويكفى فى مديح اللّه أن نذكره ، فإن آفة البَشر تجىء من الجهل والنسيان ..

قال تعالى يصف نفسه : ﴿ الْحَمْدُ للّه الَّذى خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَات وَالنُّورَ ﴾ (٤) . وقال : ﴿ الْحَمْدُ للّه الَّذى أَنزَلَ عَلَى عَبْده الْكتَابَ .. ﴾ (٥) . ﴿ الْحَمْدُ للّه رَبِّ العَالَمينَ ﴾ (٦) . ﴿ تَبَارَكَ الَّذى بيَده الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَديرٌ ﴾ (٧) .

والألوف المؤلفة من الناس تطعم وتشرب وتكتسى ، ولا تدرى مَن أسدى ذلك كله ، ثم تمضى لشأنها كأن لم يكن شىء !

---

(١) الحجر : ٣ (٢) أخرجه أبو داود ، والترمذى . (٣) رواه مسلم وغيره .
(٤) الأنعام : ١ (٥) الكهف : ١ (٦) الفاتحة : ٢
(٧) الملك : ١

يكفى أن يعرف الناس ربهم بصفاته .. فإذا استشعروها ورددوها ، فقد مدحوه ، وحمدوه ..

لقد ألفنا فى المداحين بيننا أن يذكروا كلاماً كثيراً أكثره لغو وإفك ، وأقله حق وجدّ ..

لكن مدح اللّه شأن آخر ، إنه حقائق من الألف إلى الياء ..

أليس من حق مخترع السموات والأرض أن يُعرف بأنه البديع ؟

أليس من حق القَيِّم على شئون الحياة المنفق على جماهير الأحياء أن يُعرف بأنه الحى القيوم الكريم المنّان ؟

بلى ، واستبطان هذا المعنى ، وإعلانه مدح حق ، وهو بعض ما ينبغى له ، جلّ شأنه ، من تحميد وتمجيد .

فى سورة الرحمن تطواف سريع بالعالَم من بدئه إلى منتهاه ، وعرض لأحوال الخلق منذ اتجه إليهم التكليف إلى أن لاقوا ما يستحقون من جزاء .

ولما كانت السورة فى نحو صفحتين ، فإن هذه الرحلة العاجلة سجلت إيماءات فقط إلى آيات اللّه ونعمه .

وبين كل إيماءة وأخرى يقول اللّه للإنس والجن فى تساؤل حافل بالملام والتقريع : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟ (١) .

والواقع أن كنود البَشر لفضل اللّه كثير كثرة هذا الفضل ، فلا عجب إذا ترادف الاستفهام وتكرر لأنه علاج داء عضال ، ولفتٌ إلى حق واضح مهدر ، بين ألف مضيع !

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (٢) .

وقد لاحظنا أن الاستفهام كان يتخلل الجُمَل التى تتلاحق فى بيان معنى واحد ،

---

(١) الرحمن : ١٣ - وغيرها (٢) سبأ : ١٣

كأن هذا الاستفهام بعد جزء من الكلام مسوق لاستثارة الشكر ومدافعة العقوق على آكد وجه .

ومن هنا تتابع هذا التساؤل : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟

جاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن : عدّد الله فى هذه السورة كثيراً من نعمائه ، وذكّر خلقه بعظيم من آلائه ، ثم أتبع كل خلة وصفها ونعمة وضعها بهذه الآية الكريمة ، فذكرها فى واحد وثلاثين موضعاً ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم إلى هاتيك النِعَم ويقررها بها ، ويقيم عليهم الحُجّة عند جحودها .

وقد أوردها ثماني مرات عقب آيات أحصت عجائب الخلق ، والمبدأ والمعاد ، ثم سبع مرات عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، بعدد أبواب جهنم ، وحَسُن ذكر الآلاء عقبها ، لأن من جملة الآلاء دفع البلاء وتأخير العذاب بعد التوبة من اسبابه ، وخشية الوقوع فيه ! ثم ثمانياً فى وصف الجنتين الأوليين وأهلهما ، بعدد أبواب الجنة ! وثمانياً أُخر فى وصف الجنتين الأخريين ، فمَن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين ، ووقاه الله السبعة المتصلة بالنار » ..

وحمد الله ، جلّ شأنه ، بالقلب الشاكر واللسان الذاكر ، يتقاضانا أن نضرب بعض الأمثلة الشارحة لحقيقة الحمد .

متى نصف إنساناً بالنبل ، أو بالشرف ، أو بالأصالة والعراقة ؟

عندما نراه يتخلق بالفضائل الجليلة وتتألق فى شمائله آيات الصفح والأناة والسماحة ، وعندما نرى هذه الفضائل طبعاً لا تصنُّعاً ، وسجية لا تَكلُّفاً ، وعندما نراها لازمة لا تفارق ، وصافية لا تكدر ..

إننا نعجب بالإنسان ونحبه إذا وُصِفَ لنا ، مثلاً : بأنه يعطى عطاء مَن لا يخشى الفقر ، أو أن قلبه كبير لا يعلق به حقد ، أو أنه صلب فى النائبات لا يضرع ولا يركع ، أو أنه عالم عبقرى اخترع الذرّة وغزا الفضاء ، أو مهندس ماهر بنى قصراً وشاد جسراً ، أو طبيب نطاسى أجرى جراحة بارعة ، أو .. أو .. إلى غير ذلك من المواهب الإنسانية الرفيعة .

ومحبة الجمال الأدبى والعلمى طبيعة مقررة ، واستمع إلى شاعر النيل يقول :

إنى لتطربنى الخلال كريمـــة طرب الغريب لأوبة وتلاقِ

ويهزنى ذكر المروءة والندى بين الشمائل هزة المشتـاقِ

ذاك كله فى أمجاد البَشر القاصرة المعارة المحدودة .

فكيف بالمجد الإلهى الذى لا تحده أبعاد ولا تقفه آماد ؟

إن الشعور بعظمة الله ، وقدرته الواسعة ، وعلمه الشامل ، وكرمه الرحب ، وعفوه الجميل ، ومودّته لخلقه ، وبره بهم .. إن ذلك كله يفعم القلوب بالولاء ويطلق الألسنة بالثناء ..

وكل ما يروقك من أوصاف النبلاء والكبراء فهو ومضات تَعرف على بريقها الطريق لمعرفة الكمال الأعلى .

لقد جاء فى الحديث عن أبى هريرة ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً ، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق ، حتى ترفع الفَرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » [1] ..

إن ما ترى من تراحم بين صنوف الأحياء منذ وُجِدت الحياة وما بقيت ، هو معنى تستشفّ منه تفسيراً لبعض أسماء الله الحسنى ، كذلك ما ترى فى خلائق السادة من سناء وشرف تستطيع أن تفهم على بصيصه الخافت كيف أن الله مجيد ، ودود ، نور ، بديع ، واسع ، حميد ، رشيد ، صبور .. إلخ .

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

---

(١) رواه أحمد : ٤/٢ ، ٥ ، والبخارى والدارمى فى الرقاق ، ومسلم فى التوبة ، والترمذى فى الدعوات ، وابن ماجه فى الزهد .

(٢) الأعراف : ١٨٠ .

من أجل ذلك امتلأ الكتاب والسُّنَّة بالتسبيح والتحميد ، والتنزيه والتمجيد ..

وهل الصلوات الخمس فى أفعالها وأقوالها إلا هذه المعانى منسقة مرتبة ؟

وعندما يقف المصلى يقرأ : ﴿ الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) ..

وعندما يركع يقول : « سبحان ربى العظيم » .

وعندما يسجد يقول : « سبحان ربى الأعلى » .

وعندما يقعد يقول : « التحيات لله » ..

وعندما ينهى صلاته يعود مرة أخرى لتسبيح اللّه وتحميده وتكبيره مئات المرات فى أعقاب الصلوات المكتوبات ..

والمسلم بعد ذلك وقبله ، يشغل بذكر اللّه قلبه ، ويعمر وقته ، مقتدياً برسوله الكريم الذى أضاءت حياته بأشعة لا حصر لها من هذه الصلة السماوية العالية .

ذلك أنّ اللّه لما حمَّله أعباء الرسالة ، أرشده إلى أن أعون شىء على النهوض بها والقيام بحقوقها ، هو اتصال التسبيح والتحميد : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ (٢) .

وإذا كان الأعداء سيُلحقون به صنوف الأذى ويسلقونه بألسنة حداد ، فليكن فى هذا التسبيح والتحميد عزاؤه واشتغاله : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (٣) .

إن طول الصبر وإدمان الذكر والاستغفار شفاء معنوى ناجع فى مكافحة الخصوم ، ومعاناة جهادهم : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ (٤) .

---

(١) الفاتحة : ٢
(٢) الطور : ٤٨ - ٤٩
(٣) طه : ١٣٠
(٤) غافر : ٥٥

وهكذا نجد أن حياة محمد ﷺ بنيت على معرفة الله والتبتل إليه والهتاف باسمه وجمع الناس عليه ..

إنه نبى لا ينشد لنفسه متاعاً ، ولا يبغى فى هذه الدنيا علواً ، إن وظيفته الأولى والأخيرة العمل لله وإبلاغ رسالته .

وعلى الأمة الإسلامية أن تأخذ قبساً من هذه الربانية الخالصة تُطهر به محياها وترفع به مستواها .

إنها هى الأخرى - تبعاً لنبيها - يجب أن تستهدف عبادة الله ، وحسن ذكره ، وإسماع العالمين أذانها بين يدى كل صلاة ، إشعاراً بأن العظمة لله ، والوجهة إليه وحده ..

ولذلك يقول الله للمسلمين كافة : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (١) .

هكذا ، فى الصباح والأصيل ، فى الضحى والغسق ، فى كل آن تكدح الأمة لنفسها ولربها ، وتعمل لدنياها وأخراها ، وتمزج بين بناء الروح والجسد ، وترسخ قدمها فى الأرض ، وترنو بقلبها إلى السماء ..

ومن العبث تصور التسبيح والتحميد حركة شفتين واصطراب لسان ..

إنه تفتح قلب ، واتضاح غاية ، وسفر نفس إلى بارئها ، فالليل والنهار خطوات سير ومراحل طريق .

* * *

وكلمة الإخلاص هنا - وهى كلمة لا إله إلا الله - هى الحادى الذى لا يمل نداؤه ، ولا يتلاشى صداه ..

وعندما يرددها المؤمن فهو يقصد أمرين :

---

(١) الروم : ١٧ - ١٨

أولهما : إحقاق الحق وإبطال الباطل ، فإنه فى واقع الأمر لا يوجد غير إله واحد هو الله الواحد القهار ، وما عداه وهم عُقولٍ مختلة ، أو خداعُ حواسٌ معتلة .

والآخر : ضبط السلوك البَشرى ، داخل نطاق هذا التوحيد فيكون استنصار الإنسان بالله ، واسترزاقه وتوكله وأمله وأمنه وغير ذلك من المعانى .

وهذا أمر يحتاج إلى إيضاح ، فإن الله خبأ مفاتيح قدرته تحت جملة من الأسباب العادية ، سواء أكانت هذه الأسباب كونية أو إنسانية ..

والمسلم حين يباشر هذه الأسباب - ولا بد من مباشرتها - لا يجوز أن يحتجب بها عن الحقيقة العليا ، ولا أن يظن مرد الأمور إليها - فإن الله محيط بالأشخاص والأشياء ، وهو الذى يمنح هذه الوسائل صلاحيتها للعمل ، وقدرتها على الإنتاج .

ثم إن لديه ، جلّ اسمه أسباباً أخرى لا نعلمها ولا نقدر عليها تجعل ما بأيدينا صفراً إذا شاء : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ ؟ (١) . ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ ؟ (٢) .

لذلك يجب أن تمتد أشعة التوحيد المطلق فى أرجاء النفس ، فلا تجعل شيئاً ما يحول بين المرء وربه .

ويجب أن يشعر المسلم من أعماق قلبه أنّ ما دون الله هباء ، فلا ترعه سطوة سلطان ، ولا تخدعه ثروة غنى .

وليثق أنه من المستحيل أن يُغلب الله على أمره ، أو أن يُقطع شىء دونه ، فالتعلق بغيره عجز ، والتطلع إلى سواه حمق : ﴿ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (٣) . وجاء فى الأثر أن الله ، عزّ وجلّ ، يقول : « ما من

---

(١) الملك : ٣٠ (٢) الأنعام : ٤٦ (٣) هود : ١٢٣ بلفظ : ﴿ وَإِلَيْهِ ... ﴾ .

عبد يعتصم بى دون خلقى أعلم ذلك من قلبه ونيته ، فتكيده السموات والأرض ومَن فيهن ، إلا جعلت له من ذلك مخرجاً ، وما من عبد يعتصم بمخلوق دونى إلا قطعت أسباب السماء من فوقه ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم أهلكه فى الدنيا وأتعبه فيها » .

وروى عن بعض الصحابة ، رضوان اللّه عليهم أجمعين ، أنه قال : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « مَن تعزّز بالناس ذل » . وقيل : « مَن اتكل على مخلوق مثله ذل » .

وروى عن بعض الصالحين : مَن أراد السلامة فى الدنيا والآخرة ، فعليه بالصبر والرضا ، وترك الشكوى إلى خلق اللّه ، وإنزال حوائجه بربه - عزّ وجلّ - ولزوم طاعته ، وانتظار الفرج منه سبحانه ، والانقطاع إليه . فحرمانه عطاء ، وعقوبته نعماء ، وبلاؤه دواء ، ووعده حال ، وقوله فعل ، وكل أفعاله حسنة ، وحكمة ومصلحة ، غير أنه طوى - عزّ وجلّ - المصالح عن عباده وتفرّد بها ، فليس لنا إلا الاشتغال بالعبودية ، وأداء الأوامر واجتناب النواهى ، والتسليم بالقَدَر ، وترك الاشتغال بالربوبية ، والسكوت عن لِمَ ؟ وكيف ؟ ومتى ؟

وتستند هذه الجملة إلى حديث ابن عباس ، قال : بينما أنا رديف رسول اللّه ﷺ ، إذ قال : « يا غلام ، احفظ اللّه يحفظك ، احفظ اللّه تجده أمامك ، وإذا سألتَ فاسأل اللّه ، وإذا استعنت فاستعن باللّه ، جفَّ القلم بما هو كائن ، ولو جهد العباد أن ينفعوك بشىء لم يقضه اللّه تعالى لك لم يقدروا عليه ، ولو جهدوا أن يضروك بشىء لم يقضه اللّه تعالى عليك لم يقدروا عليه ، فإن استطعتَ أن تعمل للّه تعالى بالصدق فى اليقين فاعمل ، فإن لم تستطع ، فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العُسر يُسراً » .

وفى « روح المعانى » روى أنس رضى الله تعالى عنه ، قال : « أوحى الله تعالى إلى يوسف عليه السلام : مَن استنقذك مَن القتل حين همّ إخوتك أن يقتلوك ؟ قال : أنت يا رب !

قال : فمَن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ؟

قال : أنت يا رب .

قال : فمَن استنقذك من المرأة إذ هَمَّتْ بك ؟

قال : أنت يا رب .

قال : فما بالكَ نسيتنى ، وذكرتَ آدمياً ؟

قال : يا رب كلمة ، تكلم بها لسانى .

قال : وعزتى وجلالى ، لأخذلنك فى السجن بضع سنين » .

وقال الإمام أبو حامد الغزالى فى شرحه للأسماء الحسنى ما نصه :

« الكريم هو الذى إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ، ولا يبالى كم أعطى ، ولا لمن أعطى ، وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى ، وإذا جفا عاتب وما استقصى ، ولا يضيع مَن لاذ به والتجأ ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء ، فمَن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف فهو الكريم المطلق ، وذلك هو الله تعالى فقط » .

وقال فى باب التوكل : قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) أى عزيز لا يذل مَن استجار به ، ولا يضيع مَن لاذ بجانبه ، والتجأ إلى ذمامه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير مَن توكل على تدبيره . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ (٢) . فبيّن أن كل ما سوى الله ، عزّ وجلّ ، عبدٌ مسخَّر ، حاجته

---

(١) الأنفال : ٤٩

(٢) الأعراف : ١٩٤

مثل حاجتكم ، فكيف يُتوكل عليه ؟ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُواْ عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ (١) . وقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، مَا مِن شَفِيعٍ إِلا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ (٣) . وكل ما فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار ، والتوكل على الواحد القهار .

وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليه السلام ، وقد رُمِيَ إلى النار بالمنجنيق : « ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا » . وفاء بقوله : « حسبى اللّه ونعْمَ الوكيل » ، إذ قال ذلك حين أُخذ ليُرمَى ، فأنزل اللّه تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ ﴾ (٤) . وأوحى اللّه عزّ وجلّ ، إلى داود عليه السلام : « يا داود ، ما من عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً » . وقرأ الخوّاص قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ ﴾ (٥) ... الآية . فقال : ما ينبغى بعد هذه الآية للعبد أن يلجأ إلى أحد غير اللّه تعالى . أ هـ .

وقال من كلام طويل : « الثانية : أن يكون حاله مع اللّه تعالى كحال الطفل فى حق أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع إلى أحد سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، فإن رآها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يخلعها ، وإن نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق على لسانه : يا أماه ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه ، فإنها مفزعه ، قد وثق بكفايتها وكفالتها » .

وتلك هى حقيقة التوحيد الذى يغمر فؤاد كل مسلم يشهد من أعماق قلبه أنْ : « لا إله إلا اللّه » .

---

(١) العنكبوت : ١٧ (٢) المنافقون : ٧ (٣) يونس : ٣

(٤) النجم : ٣٧ (٥) الفرقان : ٥٨

وقد كان صاحب الرسالة محمد ﷺ ، يفتنُّ فى صيغ التحميد والتقديس ، وصور التوحيد المطلق لربه ، جلّ شأنه !!

والكلمات المرويات عنه مفعمة بالشعور الجيَّاش والفكر العميق والعبودية الخالصة :

« يا ربى لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك » (١) .

« سبحان اللّه وبحمده عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » (٢) .

« باسم اللّه الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم » (٣) .

« اللّهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت » (٤) .

« أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق » (٥) .

وهذا باب واسع لو تتبعناه ظفرنا منه بالبدائع الناطقة بصدق العبودية وطول النفس فى التذلل للّه ، والرغبة إليه ..

وليس يُعرف مثل هذا التراث الغالى لبَشر آخر ..

ولا عجب !! .. إن محمد ﷺ أعبد الناس ، ومن ثَمَّ فهو أولاهم تعلقاً به وذكراً له .

ومن آيات التوحيد : الذهول عن الخلق عند مناجاة الخالق ، والشعور بأن سكان السموات والأرض أجمعين لا يملكون مع اللّه حَوْلاً ولا طَوْلاً ، وأنهم فى مقام الحاجة الماسة ، والضعف التام ..

---

(١) ابن ماجه فى الأدب .

(٢) رواه أحمد ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه .

(٣) الترمذى وقال : حسن صحيح .

(٤) أبو داود عن أبى بكرة .

(٥) الشيخان ، وأصحاب السنن ، وأحمد ، والدارمى ومالك فى الموطأ .

والمؤمن بداهة ما يتعلق إلا باللّه رجاؤه ، ولا يتجه إلا إليه دعاؤه ، ولا تنكشف إلا إليه ذلته ، ولا تسترسل إلا فى ساحته ضراعته .

وهو أهل التقوى وأهل المغفرة .

من الأدعية الرقيقة لجعفر بن محمد ، يقول : « اللّهم احرسنى بعينيك التى لا تنام ، واكفنى بركنك الذى لا يُرام ، واحفظنى بعزك الذى لا يُضام ، واكلأنى فى الليل وفى النهار ، وارحمنى بقدرتك علىّ .

« .. أنت ثقتى ورجائى .

« .. فكم من نعمة أنعمت بها علىّ قلّ لك بها شكرى .

« .. وكم من بلية ابتليتنى بها قلّ لك بها صبرى .

« .. وكم خطيئة ركبتها فلم تفضحنى .

« .. فيا مَن قلّ عند نعمته شكرى فلم يحرمنى .

« .. ويا مَن قلّ عند بلائه صبرى فلم يخذلنى .

« .. ويا مَن رآنى على الخطايا فلم يعاقبنى .

« .. يا ذا المعروف الذى لا ينقضى أبداً .

« .. ويا ذا الأيادى التى لا تُحصى عدداً .

« .. ويا ذا الوجه الذى لا يبلى أبداً .

« .. ويا ذا النور الذي لا يُطفأ سرمداً .

« .. اسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد كما صليّتَ وباركتَ وترحمتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وأن تكفينى شر كل ذى شر .

« .. بك أدرأ فى نحره وأعوذ بك من شره وأستعينك عليه .

« .. اللّهم أعنى على دينى بدنياى ، وعلى آخرتى بالتقوى .

« .. واحفظنى فيما غبتُ عنه ، ولا تكلنى إلى نفسى فيما حضرته .

« .. يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة : اغفر لى ما لا يضرك وهب لى ما لا ينقصك .

« .. يا إلهى أسألك فرجاً قريباً وصبراً جميلاً ، وأسألك العافية من كل بلية ، وأسألك الشكر على العافية وأسألك دوام العافية ، وأسألك الغنى عن الناس ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

« .. اللّهم بك أستدفع مكروه ما أنا فيه ، وأعوذ بك من شره يا أرحم الراحمين » .

ومن أدعية زين العابدين : « اللّهم إنى أخلصتُ بانقطاعى إليك ، وأقبلتُ بكلّى عليك ، وصرفتُ وجهى عمن يحتاج إلى رفدك ، وقليت مسألتى ممن لا يستغنى عن فضلك .

« ورأيت أن طلب المحتاج من المحتاج سَفَه فى رأيه وضلة من عقله .

« فكم قد رأيتُ يا إلهى من أناس طلبوا العز بغيرك فذلوا ، وراموا الثروة من سواك فافتقروا ، وحاولوا الانقطاع فانقطعوا .

« فأنت يا مولاى دون كل مسؤول موضع مسألتى ، ودون كل مطلوب إليك طلبى .

« أنت المخصوص قبل كل مدعو بدعوتى : لا يشركك أحد فى رجائى ، ولا يتفق أحد معك فى دعائى ، ولا ينظمه وإياك ندائى » .

وقال أيضاً من بعض دعاء طويل : « ويا مَن لا ينقطع عنه سؤال السائلين ، ويا مَن حوائج المحتاجين عنده ، ويا مَن لا يعييه دعاء الداعين ، تمدّحتَ بالغنى عن خلقك ، وأنت أهل الغنى عنهم ، ونسبتهم إلى الفقر وهم أهل الفقر إليك .

« فمن حاول سد خلته من عندك . ورام صرف الفقر عن نفسه بك ، فقد طلب حاجته فى مظانّها ، وأتى طلبته من وجهها .

« ومن توجه بحاجته إلى أحد من خلقك ، أو جعله سبباً لنجحها دونك ، فقد تعرض للحرمان ، واستحق من عندك فوت الإحسان .

« اللّهم ولى إليك حاجة قد قصر عنها جهدى ، وتقطعت دونها حيلتى ، وسوّلت لى نفسى رفعها إلى مَن يرفع حوائجه إليك ولا يستغنى فى ظلباته عنك ، وهى زلة الخاطئين ، وعثرة من عثرات المذنبين . ثم انتهيتُ بتذكيرك لى من غفلتى ، ونهضتُ بتوفيقك من زَلّتى ، ورجعتُ بتسديدك من عثرتى .

« وقلت : سبحان ربى ! كيف يسأل محتاج محتاجاً وأنّى يرغب معدم إلى معدم .

« ألا كل شىء ما خلا اللّه باطل .. » .

والذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا يتوهمون أن هناك مصادر كثيرة للخير - بعيداً عن اللّه - وأن هناك مراجع كثيرة للأمور - بعيداً عن اللّه - وأن هناك مَن يملكون ويبتون فى غيبة اللّه ، وهذا كله جهل كبير ، وضلال بعيد .

الحق أن الإسلام يغرس فى دماء أتباعه كافة قول رسوله الكريم : « لا إلَه إلا اللّه وحده ، لا شريك له ، له المُلك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » [٢] .

وعلى هذه العقيدة الجليلة بنى محمد ﷺ أمته ، وأقام دعوته ، وأنشأ جيلاً يثق بالواحد الحق ، ويبرأ من الشركاء المزعومين .

جيلاً انطلق فى فجاج الأرض ، لا يهاب إلا رب العالَمين ، ولا يرضى إلا ما ارتضى لعباده من شرع ، ولا تخدعه التهاويل التى أحاطت بالباطل ، ولا ترهبه القوى التى انتصبت للذود عنه ..

إن التوحيد المطلق هو لباب الرسالات السماوية كلها ، وهو عمود الإسلام وشعاره الذى لا ينفك عنه ، وهو الحقيقة التى ينبغى أن نغار عليها ونصونها من كل شائبة .

---

(٢) البخارى ، وأصحاب السنن الأربعة ، والدارمى ، ومالك فى الموطأ ، وأحمد .

ذلك .. وكلمة أخيرة !

إننى ما ذكرتُ اللّه وما ينبغى له من إعظام وخشوع إلا انتقل ذهنى إلى محمد ﷺ على أنه أعبد البَشر ، وأعرفهم بعظمة هذا الإله ..

نعم .. كلما ذكرتُ اللّه فى عليائه انتقل ذهنى إلى الرجل الذى يقودنا إليه ، ويعلمنا كيف نتقيه ، ونحيا له ونتأهب للقياه .

ولعل ذلك معنى الشهادتين :

« أشهد أنْ لا إله إلا اللّه ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله » .

* * *

نبوة وكتاب وأمة وارثة

النبوة هبة لا كسب ، فضل يتنزل من الله لا شأو يسعى إليه البَشر ..

والأنبياء قبل أن يبُعثوا لا يخطر بأنفسهم شيء عن مستقبلهم المغيب ، ولا يتشوقون إلى وحي أو يرتقبون مجيء مَلَك .

ووقت الاختيار الأعلى ، ومكانه ، ليس إليهم فى قليل أو كثير ، وقد جاء فى القرآن الكريم هذا الخطاب المبين : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُواْ أن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إلا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (١) .

ومن هنا كانت حياة الأنبياء قبل استقبال الوحى لا تتجاوز أشخاصهم ، أعنى ليست مناط تشريع ولا مصدر أسوة ..

وكل ما يُقال فى أشخاص الأنبياء أن معادنهم النفسية والفكرية لا بد أن تكون من طراز يكافىء الوظائف الجسام التى توكل إليهم ، وأن حياتهم الأولى تمهيد صالح لما يوشك أن يظهر على أيديهم ويربط الأمم بهم ..

والأربعون سنة الأولى من حياة محمد عليه الصلاة والسلام ، جاءت على هذا الغرار ..

إنسان يعيش فى مكة ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لا يُعرف بثروة ظاهرة ، أو قدرة خارقة . ولكن الذى يتفق عليه العدو والصديق ، ويبلغ فى ثبوته عين اليقين ، أن ثروته من الفضائل كانت رابية ، وأن رجولته التقى فيها ما يعرف العرب ، وفوق ما يعرفون ، من مروءة ونبل ، ومجادة وسيادة ..

والأوج الذى عاش فيه محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل بعثته هو الذى أخرس خصومه الناقمين يوم أعلن حربه الهائلة على الوثنية وآثارها ... الاجتماعية والسياسية ...

---

(١) القصص : ٨٦

لقد هاجموه بكل سلاح ، وكان غيظ قلوبهم شديداً ، ومع ذلك فقد انقطعت الأمانى دون غمزه بشىء قط ، تصريحاً أو تلميحاً .

كان رواء الصدق يتألق فى جبينه أبداً ، ما تخلّف فى جاهلية ولا إسلام .

ونستطيع أن نصف هذه السنين الأربعين بأنها تمثل حياة رجل نقى المعدن ، شريف السيرة ، يُعرف بكل خير ، ولا يُعرف بشر أبداً . يكابد السعى وراء رزقه ، فيرعى الغنم صغيراً ويضرب فى الأرض كبيراً .

والاختلاط بالناس فى هذه الميادين قاسٍ للنفس البَشرية ، وقد خرج محمد ﷺ من هذه الظروف جميعاً موفور العصمة والفطنة ، عايش قومه فى نطاق الضرورة الماسة ، واعتزلهم فى جبال مكة ينشد فى صمتها وعزلتها راحة القلب واللُّب ، حتى تجلى عليه الحق فى غار حراء .

ويومئذ عرف أن رب العالمين قد اصطفاه لأمر عظيم ! لقد أضحى واحداً من أنبياء اللّه ، بل إن الأمر على مر الأيام قد بدا أعظم من ذلك ، إن الوحى الذى استقبل كلماته الأولى كان طليعة رسالة تستغرق الدهور الباقية من عمر الحياة .

وتستوعب القارات الغاصة بالعمران ، وتتناول شئون الناس بالتوجيه والفتوى ، فلا تترك عقدة مبهمة ، ولا طريقاً حائرة : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

وكما يتحول الجنين - بعد نفخ الروح فيه - خَلْقاً آخر ، تتحول حياة المرسلين - بعد استقبال الوحى - نسقاً آخر ، لُحمته وسُداه هذا الضياء الهادى الهابط من السماء .

ومحمد عليه الصلاة والسلام ، عند ما شرع يستدرج القرآن بين جنبيه كان قبل غيره من الناس أول مَن ينتفع ، ويرتفع بما تضمنه من صدق وجلال ، وخير ومرحمة .

---

(١) النحل : ٨٩

إن الرجل الذى خلت فطرته من شهوات الأرض وأكدار الدنيا ، انتشرت فى أرجائه الباطنة شعاعات الوحى ، فهى تبرق فى شمائله ومسالكه كما تتلألأ الآفاق فى ضحوة صافية .. وقد أومأت السيدة عائشة إلى هذا المعنى عندما سُئلت عن خُلق رسول الله ، فقالت : « كان خُلقه القرآن » ! [1] .

إننا نقف عند هذه العبارة طويلاً لندرك غورها ..

فالقرآن قبل أن يكون معجزة الرسالة الخاتمة هو مجمع ما حفلت به من عقائد وعبادات وآداب ومعاملات ، وما استعرضته من قصص وبراهين ، ونظرات كونية ونفسية

نبى القرآن كان فى حياته الخاصة المثال الأول ، والأزكى ، والأرقى ، لكل ما وصّى به الله ووجّه إليه العباد .

أمر الله بفرائض ، وحثّ على نوافل ، وأحلّ حلالاً ، وحرّم حراماً ، ووضع حدوداً ، وساق عبراً .

إنك واجد ذلك كله « نظرياً » فى كتاب الله ، ولكنك واجد التنفيذ « العملى » له ظاهراً وباطناً فى سيرة محمد - صلى الله عليه وسلم - نبى القرآن .

فمعرفة الله - مثلاً - أمر عام للخلائق كافة ، بَيْد أن العارف الأعظم لله ، والذى تنضح هذه المعرفة على سريرته وعلانيته ، وتطرد من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور إلى شبه الشعور إلى اللاشعور ، المعرفة فى أوجها المطلق وقمتها الفارعة تبدو أول ما تبدو فى خُلق محمد ﷺ .

والصلاة - مثلاً - فريضة عامة على المؤمنين ، بَيْد أن المصلى الساجد القلب قبل الجوارح ، القرير العين بين يدى ربه ، كلما أذّن مؤذن للصلاة ، المستريح إليه من

---

(١) رواه مسلم فى كتاب المسافرين ، وأبو داود فى التطوع ، والترمذى فى البر ، والدارمى فى الصلاة ، وابن ماجه وأحمد .

وعثاء الدنيا ومشاغل التراب ، الصادح بها فى هدأة الليل ، ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه .. هو محمد - صلى الله عليه وسلم - نبى القرآن .

إن أشخاص الأنبياء ليست جسوراً لهدايات السماء وحسب ، كلا ، إنهم ترجمة عملية لمراد الله من خلقه .

ويمتاز محمد عليه الصلاة والسلام ، بأنه قدَّم للبَشر أكبر مجموعة من النماذج العملية للإنسانية الفاضلة ، والعبودية المخلصة .

والثلاث وعشرون سنة التى استوعبت نزول القرآن الكريم استوعبت كذلك أطوار سيرة عامرة بالحب والبغض فى الله ، بالسلم والحرب ، بالشدة والرخاء ، بالسفر والإقامة ، بمعاناة كل ما يعرو النفس الإنسانية من أحوال ، وما يُفرض عليها من قيود ، وما تمحص به من تجارب .

ومن هنا كانت سيرة الرسول وسُنَّته من قول أو فعل ، أو حكم ، أو تقرير ، ديناً يُتبع ، فما كان منها قرآناً فهو ظاهر ، وإلا فهو نضح التخلق بالقرآن ، والاصطباغ بهداه ، والاستقامة مع غاياته .

والأنبياء قبل أن يُبعثوا لا يخطر بأنفسهم شىء عن مستقبلهم المغيب .

وإنى لأشعر بكلال ذهنى وأنا أتصور هذا الرسول يحفظ أحرف الوحى فى السور الطوال التى تنزل عليه ، ثم بعد هذا الاستظهار الرائق ، تبدأ « عملية » تحويل القرآن إلى خُلُق شخصى ، ومسلك نفسى ، واجتماعى ، وهى عملية تصاحب تلاوته على الناس ، وأخذهم بحدوده ومعالمه وحلاله وحرامه .

لقد صحّ أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة !!!

أى وعى حاد مستوفز التقط هذه الصفحات الطوال ، واستطال إشراقه حتى أحاط بها بدءاً ونهاية ، وامتد انتباهه حتى بقى التسجيل دون أن يفلت حرف أو تغيب كلمة ؟؟؟

ثم نتجاوز ذلك المظهر لتلقّى الوحى ، إلى استنارة صاحبه به ، وإقامة حياته خلجة خلجة ، وخطوة خطوة على أساسه .

فهو يتقلب فى جو من مصاحبة اللّه ، كما ينطلق أحدنا فى طريق مشمس طويل مغمور بوضح النهار من كل ناحية .

ولقد صوّر القرآن الكريم طبيعة الخُلُق النبوى الشامل ، فى هذه الآية : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

أبلغت الإنسانية فى واحد من أبنائها مثل هذا المجد السامق ؟ مجد الاستغراق فى الحق والانطباع بآياته ، والانطلاق بها فى جنبات الأرض لتكون شريعة حاكمة ، وبصيرة هادية ؟

هذا وأبيك المجد ، الذى عرفه التاريخ لمحمد ﷺ ، وقدّمه به على المستقدمين والمستأخرين ..

* * *

وانتقل محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ولكنه بقى كتاباً وسُنّة بين ظهرانى الناس ، فقد طبع على غراره جمهوراً من أصحابه كانت أخلاقهم القرآن ، يتلونه بألسنتهم ويحيون به فى شئونهم كلها .

فمنه عقائدهم الدافعة ، وضمائرهم الوازعة ، ومُثُلُهم الحادية ، وشرائعهم الحانية ، وتقاليدهم الضابطة ، وموازينهم لكل ما يجدّ من أحداث .

إنه معقد صلتهم بربهم وبأنفسهم وبالناس أجمعين .

ورسالة الإسلام لا يحصرها زمان ولا مكان ، ولا تُحتبس فى أفق من أحوال البَشر وتدع أفقاً آخر ، وهذا الشمول ظاهر فى سور الكتاب ، وسُنّة الرسول ، وعمل الأصحاب .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣

ووسيلته الفذة أمة من الناس خلقها القرآن ، تفقهه نصوصاً ، وتستنبطه شمائل ، وتقيمه شرائع وشعائر ...

تتعلم من رسولها ما تعلمه هذا الرسول من ربه ، ثم تقدِّمه للناس علماً وعملاً ! تلك وظيفة الأمة الإسلامية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (١) .

واتصال هذه الأمة بغيرها ليس اتصال اللسان البليغ أو القلم الساحر ، كلا ، إنه اتصال الأسوة الحسنة ، والنموذج المعجب ، وما يكون الوحى الإلهى إلا كذلك : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (٢) .

ليت شعرى ، أأصيب المسلمون اليوم بفقدان الذاكرة ، فجهلوا أنفسهم ونسوا رسالتهم الإنسانية الرفيعة ؟ أم تطاول عليهم العمر فتبلدت المشاعر وقست القلوب ؟

سواء أكان هذا أم ذاك ، فالأمر يحتاج إلى تجديد أو توكيد حتى تعرف الأمة الكبيرة وظيفتها بوضوح ...

إن الله منذ عزل اليهود عن الوحى ، وأبعد عنهم النبوة ، وأصبحت قصة الشعب المختار فى خبر كان ، تولى قياد العالم جنس جديد ، أو دم جديد ، قوامه أمة تقدس الحق ، وتصون آياته ، وترفع فى الأرض راياته .

وفى هذه الأمة المختارة على أنقاض الماضى البعيد وذكرياته ، يقول الله جلّ شأنه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) الأنبياء : ٧٣ (٣) فاطر : ٣٢

وظاهر من صدر الآية أن الأمة الإسلامية مصطفاة من بين الأمم وأنها مسؤولة عن الميراث النفيس الذى آل إليها ، وأن تبعاتها أمام الله جسيمة ، بإزاء هذا الاختيار الأعلى ، وأمام الكتاب الضخم الذى اختتم به الوحى ، ووكل إليها درسه ونشره ، وكلفت أن تحيا به ، وتحيا له ..

نعم .. إن أمتنا ورثت منصب الرسالة بعد موت الرسول ، لأنها ورثت الكتاب الذى جاء به ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور .

* * *

وواجبها الأكبر - بل لب وجودها - أن تقود باسم الله قافلة البَشر قيادة تحفظ على العالَم الهدى والتقي والعفاف والغنى ، وتقى حضارته الزيغ والأثرة والعدوان والضر .

ولا يجوز لشعب ما أن يزعم أنه مختار من السماء لمعنى مبهم ، أو تفضيل مجرد ، فهذا كذب على الله ، وإنما تفضل أمة غيرها بمدى ما تملك من قدرة على النفع ، ورحمة للعالَمين .

وأسلافنا الأوائل أسدوا للحياة أيادى بيضاء جعلتهم طليعتها المرموقة قروناً عدداً ... ثم وهنت الكواهل والضمائر عن حمل اللواء ، فأصابنا ما أصابنا ...

ولكى ننهض بوظيفتنا العتيدة يجب أن نستجمع خلالاً عدة ، وأن نسابق الزمن حتى نغطى فترة التخلف الماضية حتى نصل قبل أن يستمكن العميان من قيادة الدنيا إلى الهاوية .

ومرة أخرى نلفت الأنظار إلى معنى الخُلُق بالقرآن ..

إن الأخلاق ، كما قيل . هى اللغة العالمية التى يستطيع أهل الأرض على اختلاف ألسنتهم أن يتعارفوا بها .

ولقد يلتقى رجلان لا يفهم أحدهما لغة الآخر ، ولكن تنعقد بينهما مودّة غالية ، لأن المسلك الرفيع ربط بين قلبيهما .

وهل نشر أسلافنا الكبار من صحابة وتابعين دينهم بين أشتات الشعوب إلا بهذه اللغة الواضحة ؟

كان الناس يرمقونهم عن بُعْد ، أو يخالطونهم عن قُرْب ، فيرون الأيدى المتوضئة تعف عن الشبهات بله الدنايا ، ويرون من سناء قلوبهم ورقة طباعهم وعدالة حكمهم ونزاهة نيّاتهم ما يدفعهم إلى الدخول فى دين الله أفواجاً ...

ومن هنا ، فإن المسلمين لن تنهض لهم حُجّة ما بقوا أمماً متخلفة ، متفرقة ، لا تعرف القرآن إلا أمانى جوفاء .

ومن حق العالم أن ينأى بجانبه عنهم ، ووزر انحرافه عن صراط الله عندئذ واقع أكثره على ورثة الكتاب الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ...

* * *

فى أحيان كثيرة يخامرنى إحساس بأننا نحن المسلمين مسؤولون - قدراً ما - عما يشاع فى العالم من كفر بالله ، وإلحاد بآياته ، لأننا نملك المصباح المضىء ، ولكننا حجبنا نوره ، ووضعنا على زجاجته قتاماً ، فما ينفذ منه شعاع ...

ثم ليسأل المسلمون أنفسهم : ما مأتى هذا التخلف الشائن ، فى فقه الطبيعة ، واستكناه قوانينها ، واستخراج دفائنها ؟

كيف ، وهو الكتاب الذى يؤسس اليقين على ركائز التفكر والبحث ، ويسخّر لبنى آدم فجاج البر والبحر ، والأرض والسماء ، وما بينهما .

إن من التخلق بالقرآن أن يكون رقى المسلمين العلمى مكافئاً لحديث كتابهم عن الكون وآياته ، والحياة وروائعها .

إنهم بهذا التقدم العلمي يحيون على مستوى كتابهم ، ويقدرون على خدمة رسالته بما يتيحه التفوق العلمى من إبداع صناعى ، وتنظيم عمرانى .

ولنعترف بأن هناك مسلمين يتدحرجون على السفوح لا يدرون من أسرار الكون الكبير شيئاً ، على حين استطاع أقوام لا يؤمنون بالله ، أو يؤمنون به على

غموض وشرك ، استطاع هؤلاء وأولئك ، أن يقتربوا من فطرة القرآن بيقظتهم العقلية العارمة ، وأن يحرزوا من التقدم المادى المجرد ، ما أثار فى الحياة الفتنة والحيرة .

فإن يك على هؤلاء حَرَج ، فالمسلمون المفرطون شركاؤهم فيه ، ومَن يدرى ؟ ربما كان كفلهم منه أربى ..

لقد ورثنا النبوة والكتاب ، تُرى هل سنسعد بهما ونُسْعِد العالَم معنا أم ماذا !!؟

إنَّ العرب اليوم على أبواب تجمُّع جديد ، ومستقبل ممتد .. وميراثنا مصون ، وتبعتنا بيِّنة .. وصراعنا مع الاستعمار يجب أن يعتمد على كل ما لدينا من أسباب النصر وضمانات السماء .

* * *

محمد رحمة للعالمين

الكذب رذيلة خسيسة ، تضطرب الثقة مع شيوعها ، وتضيع المصالح العامة والخاصة ، ولن ترى فى جو الكذب إلا الفوضى والعناء .

والكذبة الصغيرة قد يصحبها ضرر محدود ، ولكن الأعمار تذهب سدى نتيجة كذبة كبيرة ...

وعندما يدخل الكذب ميدان العقائد والعبادات ، فإن الهلاك يدرك الألوف المؤلفة من الأرواح ، ويجتاح أمماً كثيفة على تراخى الزمان وامتداد المكان !

وكم من باطل آمن الناس به ، فضلل سعيهم ، وشرد خطوهم ، وجرّ الويلات على حاضرهم ومستقبلهم ، لأنهم بنوا كيانهم المادى والأدبى على أكذوبة لا أصل لها ..

تصور عابر سبيل سألك عن مكان كذا ... فوجهته إلى الشمال وكان يجب أن يسير إلى الجنوب ، أو إلى الشرق وكان يجب أن يسير إلى الغرب !

إن هذا المسكين لن يصيب هدفه أبداً ، ولن يجنى من جريه إلا الضنى واللغوب !

وكم من أمم أخطأت وجهتها فى هذه الحياة ، وانطلقت تضرب فى فجاج الأرض على غير هدى ، وتوارث الصغار عن الكبار هذا الزيغ ، فهم لا يحصدون من كدحهم إلا الشقاء .

وهل يجىء الباطل بخير ؟ إنّ الكذب قرين الشر ، وإنّ الحق وحده هو راحة القلوب وسعادة الجماعات .

وقد كانت بعثة محمد ﷺ رحمة عامة ، لأنها أهدت إلى البَشر جملة الحقائق التى يفتقرون إلى معرفتها واستصحابها ، فوفرت عليهم عناء التيه فى دروب من الباطل لا حصر لها ... ألم تجعل الحق فى متناول اليد ؟ والنفع المنشود

ميسوراً فى العاجلة مضموناً فى الآجلة ؟ .. والحقائق التى تضمنتها الرسالة الإسلامية تمتاز بالشمول والوعى ؟

فهى لم تدع ثغرة لباطل يفسد على الناس عقائدهم وأعمالهم ، سواء فى المجال النفسى أو الاجتماعى أو السياسى ...

ثم إنَّ محمداً ﷺ ، جاء فى أعقاب نبوات أعطب الشيطان ثمارها . وكانت بعثته كلمة السماء الأخيرة ، فلا جَرَم أنها تمتلىء بالضمانات التى تمنع العوج وتقى الانحراف ، وتستفيد من تجارب الماضى لتصون مستقبل الإنسانية الطويل . ولقد جاء فى الكتاب الكريم : ﴿ تَاللَّه لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

نعم .. هناك ديانات مفتعلة ، ومعتقدات نسبت إلى اللّه ما لا يليق ، وقوّلته ما لم يقل .

وبلغ من رسوخ هذه وتلك أنها قاومت الحق لما جاءها أشد مقاومة ، فماذا كسب العالَم من هذه المذاهب الجائرة ، وماذا كسب أصحابها ؟ لا شىء إلا الشقاء .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّه وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ، أَلَيْسَ فى جَهَنَّمَ مَثْوىً لِّلْكَافِرِينَ * وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِه أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

إن بعثة محمد ﷺ كانت ميلاداً للحق فى أبهى صوره وأزهى أشعته ، وكان شروق هذا الحق إيذاناً بزوال الحيرة السائدة ، والشقاء المخيم .

---

(١) النحل : ٦٣ - ٦٤ (٢) الزمر : ٣٢ - ٣٤

كانت هذه البعثة رحمة عامة .

ونظرة سريعة على ما قدّمه الإسلام للعالم ترينا أبعاد هذه الرحمة ، والمدى الواسع الذى تعمل فيه ...

كان الناس - ولا يزالون - بين كافر ينكر الألوهية بتة ، أو مؤمن معتل الفكر فى تصوره للألوهية وفى علاقته باللّه الكبير !

وما أغرب الطرفين المتناقضين .

هذا مادى لا يعترف بأثارة من روحانية فى الأرض ولا فى السماء ، وهذا يوغل فيما وراء المادة حتى ليضفى القداسة على الأوهام ، فيرى الألوهية حالّة فى نوع من الدواب أو فى لقم من الخبز !

وقد جاء الإسلام يعلن عن إله واحد ، خلق كل شىء ، وتنزّه عن مشابهة أى شىء : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

والتوحيد المطلق هو الحق الذى غالى به الإسلام وبسط آياته فى كل أفق .

والعلاقة الوحيدة الصحيحة بين الناس ورب الناس هى إسلام الوجه له ، وإحسان الاستمداد منه والاعتماد عليه واعتبار الدنيا مهاداً للآخرة وجهاداً لكسبها .

ولكن جمعاً غفيراً من الخلائق عاش على الأرض مقطوع الصلة باللّه ، لا يعرفه البتة ، أو يعرفه معرفة مشوهة رديئة .

وهذا الكفران حرم ذويه من رؤية الحق ، والانتفاع بهداه والظفر ببركته ، فكيف يقضون على الأرض أعمارهم ثم كيف يلقون بعد ذلك ربهم ؟

---

(١) الشورى : ١١ - ١٢

أما الآخرة فقد خسروها ، وأما الدنيا فإن ما ينالون منها قَلّ أو كثر لا غناء فيه : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١) . ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىَ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ (٢) .

لقد كانت بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، إنقاذاً من هذا الإلحاد وعواقبه الشائنة ، لأنها عرّفت الناس بالله على أصدق وجه وبأقوى دليل ...

ولم أعرف - فيما قرأت - بَشَراً مثل محمد ﷺ وجّه الفكر الإنسانى إلى العلم بالله وملأ القلب الإنسانى بالخشوع لله ، ثم عن طريق العلم والأدب شرح قضية الوجود ، ووظيفة المرء فى الحياة ، شرحاً عامراً بالصدق والجمال .

* * *

تلك أولى آيات الرحمة العامة التى بُعث بها صاحب الرسالة العظمى .. يلى ذلك العمل والسلوك ، فإن محمداً الإنسان الكبير جاء إلى الأجناس كافة بدين : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٣) .

وهذا منهج وسط جميل ، ففى الناس إباحيون يصطادون الشهوات حيثما لاحت لهم ، ولا يحسون طعم الحياة إلا من خلال الرغبات المجابة والغرائز المرسلة .

وفى الناس رهبان كظموا على طبائعهم ، وحملوها ما لا يُطاق فحملت وهى كسيرة مقهورة .

وإنى أشعر بالروعة والفزع والأسى عندما أرى صور الرهبان البوذيين

---

(١) الرعد : ٣١ (٢) الحج : ٥٥ (٣) الأعراف : ١٥٧

المنتحرين وهم قابعون فى أماكنهم والنار تشتعل فى أبدانهم ومع لسعها ولهبها لا يتحركون حتى يتحولوا حمماً وهباءً !

هذه العزيمة الحديدية ما قيمتها ؟

لا شىء ! فـ « بوذا » رجل لم يكن يعرف اللّه ، وفى دعوته مزيج من التعاليم التى تُرفض وتُقبل .

ولما مات جعله أتباعه إلهاً ، وفدوا مذهبه بأرواحهم !

وإنه لشىء محزن أن يذهب جيل من الناس فداء وهم لا أصل له ولا حقيقة ... لقد جنبنا محمد ﷺ هذه الكارثة ! عرّفنا كيف نحيا بعد أن عرّفنا لمن نحيا !

إنّ اللّه لم يفرض علينا عنتاً ، ولم يجشمنا شططاً : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾ (١) ... ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ، قَالُواْ خَيْراً ، لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ (٢) .

وقد تكلّف بالجهاد الشاق ، لكنه جهاد واضح الغاية معقول الدوافع ، يستميت المرء فيه لتكون كلمة اللّه هى العليا ، ولتكون حقوق الناس وأموالهم وأعراضهم ودماؤهم مصونة مقدسة .

فإذا استشهد أحد فى هذه السبيل ، فإنه لم يمت فداء وهم ، بل مات فداء الحقيقة العليا ، وكسب باستشهاده ما فى الأرض والسماء ..

والمبادىء التى أقرها الإسلام لضبط المجتمعات أساسها الرحمة العامة وتوكيد المصلحة الحقيقية للأمة !

وشرائع الحدود والقِصاص التى كتبها على العباد ، بعض مظاهر هذه الرحمة .

لقد سمعنا مَن يرق لشنق القاتل ويتألم لمصرعه ، ورأينا دولاً كبيرة تلغى عقوبة الإعدام ، فماذا جنت من هذه الرأفة الكاذبة بمجرم يستحق الموت ؟

---

(١) النساء : ١٤٧ (٢) النحل : ٣٠

زادت جرائم العدوان على الأرواح فقُتِل أفراد أبرياء وقُتِل معهم نفر من رجال الشرطة وهم يحاولون اللحاق بالمجرمين للقبض عليهم ..

وهذه عقبى الرحمة القاصرة والرأفة العمياء ..

إنّ اللّه لما شرع قتل القاتل كان يحمى الجماعة من شره ، وكان بقتله يصون حق الحياة لآخرين .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (١) . وقول العرب قديماً : « القتل أنفىٰ للقتل » .

فالقصاص وإن قسا على المجرم فهو يرقُّ للمجتمع كله ويحنو على آحاده .. ومثل حماية الدماء حماية الأعراض ، فلا قسوة هنالك فى جلد أو رجم ، لأن الغرض الأهم تقديس الشرف ، وحماية الأسر ، وإشاعة الطهر والعفة بين جماهير الرجال والنساء .

لذلك قال اللّه تعالى وهو يوصى بإقامة تلك الحدود : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

لماذا ؟ لتخرس بواعث الجريمة وتسرى الرهبة في نفوس أهل الريبة ، فلا يحاولوا تعدى حدود اللّه ، وتلويث كرامات الناس !

* * *

وتتجلى الرحمة التى اقترنت بها رسالة محمد ﷺ فى أسلوب التعامل الذى وضعه اللّه للناس بعضهم مع بعض ، فإن التفاوت بين الناس بعيد الشقة ، ومع أنهم من أبوين اثنين فإن اختلافهم فى المواهب الفطرية والأوضاع الاجتماعية

---

(١) البقرة : ١٧٩ (٢) النور : ٢

مثار امتحان بالغ القسوة ، ولذلك قال جلّ شأنه : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ (١) .

هناك الغنى والفقير ، والعالِم والجاهل ، والقوى والضعيف ، والمرموق والغامض ، والأسود والأبيض .. إلخ . فعلام تدور العلائق بين أولئك جميعاً ؟

لقد قرر الإسلام ابتداء أنه ما من إنسان إلا وهو مُختَبر بما أوتى من مواهب وأحيط به من ملابسات !

وأن إرادته للتسامى أو إيثاره للهبوط هما اللذان يقرران عند الله مصيره : ﴿ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٢) .

فالتصرف فى المال ، لا المال نفسه ، هو الذى يحدد مستقبل الإنسان ، والتصرف فى العلم ، لا العلم نفسه ، هو الذى يحدد مكانته .

ومعنى ذلك أن الغنى لا بد أن يعين الفقير وإلا سقط ، وأن العالِم لا بد أن ينير الجاهل وإلا هوى .

فمَن حبس فضل ذكائه وثرائه عن الناس زلَّ عن درجة التقوى ، ولم ينفعه ما كسب فى الدنيا من مال وجاه .

وعلى الطرف الثانى أن يسعى للخير ويستكمل الرشد دون حقد أو غضاضة : « وليس منا مَن لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالِمنا حقه » (٣) .

الناس - فى منطق الإسلام - فروع شجرة واحدة ، وأساس الصلة بينهم التعارف والتعاون ، والله جلّ شأنه - برحمته - مع الوالد حتى يوفر له البر ، ومع الولد حتى يضمن له الحياة والتربية ، ومع الحائر حتى يسوق له الهداية .

والدنيا دار اختبار ، وللاختبار مطالبه ومظاهره وظروفه .

ولكن الإسلام فى حومة هذا الامتحان يُذكِّر الناس بضرورة التراحم بينهم ، وكبح ما تخلفه الأثرة من قسوة فى القلب وبلادة فى الحس ...

---

(١) الفرقان : ٢٠ (٢) الطور : ٢١ (٣) الترمذى فى البر ، وأحمد : ٢٥٧/١

ألا ترى كيف أعلن الله مغفرته لبغيٍّ سقت كلباً كان يلهث من شدة العطش ؟

فإذا كانت الرحمة بداية هينة قد نالت من الله هذا الرضا ، فما بالك بمن يرق للبَشر ويخفف آلامهم ويُفَرِّج كرباتهم ؟

* * *

وقد أقر الإسلام الحرب ، وما كان له أن يفعل غير هذا لمصلحة البَشر .

إن الحرب جريمة مرذولة منكورة يوم تكون عدواناً على ضعيف ، واجتياحاً لحقه ، ويوم تكون غمطاً للحق وإطفاءً لنوره .

أما يوم تكون كسراً للكبرياء وقمعاً للظالمين وحسماً لشرورهم ، فهى نجدة وإسعاف ، وتأديب للطغاة ، القتال هنا لا يزيد مفهومه عن التنكيل بقُطّاع الطرق ، فهو من معانى الرحمة والأمن التى يفتقر إليها العالَم ..

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « أنا نبى المرحمة ، ونبى الملحمة » (١) .

وجاء فى القرآن الكريم إنذار الظلمة والجهال على أنه بعض حقائق الرحمة العليا : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِندِنَا ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (٢) .

وقد يحاول الناس التطاول بما لا معنى للتطاول به ، لكن الإسلام رفض أن يستطيل أبيض على أسود ، أو يستعلى قوى على ضعيف أو كبير على صغير .

وبنى حضارته على أن السبق فى الدنيا والآخرة لإرادة الخير وحدها ..

إنّ بعثة محمد ﷺ فجّرت ينابيع الرحمة بين الناس بالأصول التى قامت عليها ، والتعاليم التى غرستها ، فماذا قدمت للناس حضارة الغرب فى أزهى العصور ، وأرقاها معرفة ؟

إنّ هناك مذاهب حيوانية تختفى وراء الرقى العقلى الذى يسود أوروبا وأمريكا اليوم .

---

(١) أحمد : ٤/٣٩٥ (٢) الدخان : ٣ - ٦

ولن يلقى العالَم من هذا الرقى ما يؤمِّن مخاوفه ويسكن هواجسه ، يقول الأستاذ « محمد عرفة » فى هذا الشأن : « لقد رأينا أن علّة البَشر آراء سبُعية اعتنقوها ، وأفكاراً وحشية آمنوا بها ، فعدا بعضهم على بعض وافترس قويهم ضعيفهم حتى أوشكوا أن يبيدوا نوعهم ويهلكوا جنسهم » .

* * *

ونريد أن نذكر بعض هذه الآراء ، وننسبها إلى قائليها بعدما فعلت فى المجتمع البَشرى فعل النار فى الهشيم ، والسم فى الجسم السليم ، من ذلك ما قاله « مونتسكيو » فى « روح القوانين » :

« إذا كان علىّ أن أدافع عن حقنا المكتسب في اتخاذ الزنوج ذوى البَشرة السوداء عبيداً فإننى أقول إن شعوب أوروبا وقد أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يكن أمامها إلا أن تستعبد شعوب إفريقيا لكى تستخدمهم فى استصلاح أرجاء أمريكا الشاسعة ، وما شعوب إفريقيا إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ذوو أنوف فطس إلى درجة يكاد يكون من المستحيل أن ترثى لها ، وحاشا للّه ذى الحكمة البالغة ، أن يكون قد أودع روحاً - أو على الأخص روحاً طيبة - فى جسد حالك السواد » .

أليس معنى ذلك : استعمروا ما شئتم من الأرض واستعبدوا مَن أردتم من أهلها ، فإن نفقوا كما تنفق الدواب فى خدمتكم ، ففى شعوب قارة إفريقيا بديل ، فاستعبدوهم ، وانقلوهم إلى أمريكا عبيداً مسخَّرين لفلاحة أرضكم ، واستصلاح أرض أمريكا الشاسعة ، وفى إبادة العبيد الأولين عذر لكم فى استعباد الآخرين ؟

أليس هذا العذر هو العذر الذي هو أقبح من الذنب ؟ أليس هذا مثل غسل الدم بالدم ، وتكفير الذنب بالذنب ؟!

وقال « نيتشه » : « الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا ، هذا أول مبدأ من مبادىء حبنا للإنسانية ، ويجب أيضاً أن يُساعَدوا على هذا الفناء !!!

« أى الرذائل أشد ضرراً من الشفقة على الضعفاء العاجزين ، لا رضا بل قوة أكثر وأكثر ، لا سلام مطلقاً ، بل حرب ، لا فضيلة بل مهارة .

« ما الخير ؟ كل ما يعلو فى الإنسان بشعور القوة وإرادة القوة والقوة نفسها .

« ما الشر ؟ كل ما يصدر عن الضعف .

« ما السعادة ؟ الشعور بأن القوة تنمو وتزيد ، وبأن مقاومةً مّا قد قضى عليها » .

هذه بعض آراء « نيتشه » من فلاسفة العصور الحديثة .

وأيّاً ما كان ، فهذه الآراء لا يمكن معها نزع السلاح ، ولا التعايش السلمى ، ولا إنصاف الشعوب ، ولا إقرار العدالة ، واحترام أى مثل من المُثُل العليا .

وأى أمل يُرجى مع مَن يرى أن لا سلم مطلقاً بل حرب ، ولا فضيلة بل مهارة ؟ وكيف تنتظر الرحمة ممن يرى أنها رذيلة بل أنها أشد الرذائل ضرراً ؟!

ذلكم طابع الحياة الحديثة . وربما وارتْ سوأتَه خطبُ الساسة ، وتصريحات الزعماء ، والكلمات الناعمة المتبادلة حول الموائد المستديرة ..

إن مصالح الجماهير ، ومُثُلها الرفيعة ، وقضاياها الكبيرة يقف أمامها ألف عائق .

أما العمل الذى يمضى فى طريقه دون عائق فهو نسيان الله ، والاستهانة بأمره ، والتهام الملونين والمستضعفين ..

شتّان بين هذه الحضارة ، وبين حضارة يقال لمؤسسها النبيل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

* * *

(١) الأنبياء : ١٠٧